الفصل الثالث

عوامل التطور المحلية

١ ـ الأثر المتبادل بين الفنان ومجتمعه

اختلفت المذاهب فى كتابة تاريخ الأدب والفن كما اختلفت فى كتابة التاريخ العام . وهناك مذهبان غير واقعيين أحدهما ذو طابع ذاتى يبالغ فى تقدير الموهبة الإبداعية للكاتب أو الفنان ، أو المفكر ، وينسب إليها الفضل الرئيسى فى تطوير النشاط الاجتماعىّ فى مختلف نواحيه، فهو يمتحنها فى ذاتها على أساس أنها ظاهرة طبيعية فذة ، وإن كانت تتأثر إلى حدما ببيئة صاحبها ، أى بخلطائه وقراءاته ومهنته وما إلى ذلك. ومن المعروف أن الناقد الفرنسىّ « سان بيف » كان من أشد المتحمسين لهذا المذهب الذى يعجز عن تبيان ارتباط الأعمال الأدبية والفنية بعصرها ، ومدى نجاحها فى التعبير بصدق عن مضامينه .

أما المذهب الآخر الذى يستمد أصوله من الناقد الفرنسىّ « تين » ، والذى يقف هو والمذهب الآخر على طرفى نقيض ، فلا يغفل عن اختلاف العصور ، وتميز كل منها بمعتقدات وميول وأذواق ذات طابع معين ، وأثر ذلك فى الأفراد سواء أكانوا من أهل الأدب والرأى أم من عامة الناس ، ولكنه يرى ذلك الأثر أوحد حاسماً ، ويغفل عن قدرة الفنان الإبداعية ومدى تنشيطها للنهضات . . . أى أنه يؤكد أثر البيئة الحاسم فى تحديد طبيعة الفنان واتجاهاته ، ولكنه ينكر الأثر المتبادل بينه وبين بيئته ، ويعجز عن تفسير أصالته الفنية ، وقدرته الإبداعية المتميزة ، كما يعجز عن تفسير الدور الذى تلعبه البيئة فى تحديد الأعمال الأدبية والفنية ، بل وشرح الحركة العامة لتطور الأدب والفن ، والنشاط الفكرى بأنواعه[1].

والذى يمحص هذين المذهبين لا يجد مفرًّا من التسليم بأن الفنان مدين فيما يبدعه من أعمال إلى كل من موهبته وبيئته ونشاط مجتمعه الاقتصادىّ والفكرىّ والفنىّ على

(١) يراجع كتاب « بحوث فى النقد الجدلى » للناقد « أوجست كورنو » ص ٢٨ ، ٢٩ .

السواء ، وأن موهبته لا تتفتح وتبتكر إلا على قدر ما ييسّره ذلك النشاط . فثمة تقارب — ولو إلى حد — بين مستوى أعمال الفنان ، والمستوى المادىّ والثقافىّ لمجتمعه ؛ وإذا كان الأمر غير ذلك لأمكن مثلاً ظهور شاعر فى مجتمع همجىّ يبدع منظومات فى مستوى منظومات تشوسر ؛ وهذا أمر ترفضه البديهة كما تنكره وقائع التاريخ .

وموهبة الفنان الإبداعية لا تقتصر على التأثر بمجتمعه والتكيُّف به ، ولكنها تعود فتؤثر فى المجتمع وتكيِّفه. والذى ينكر ذلك ينكر الدور الرئيسى الذى يلعبه تطور الأدب والفن بعامة .

ونشير هنا إشارة سريعة إلى أن التطور الرئيسى الذى يطرأ على الأدب والفن ، وينقلهما من مرحلة إلى مرحلة ، يرجع إلى تغير فى وضع المجتمع الطبقى ، أى يرجع إلى ظهور طبقة اجتماعية جديدة ذات مثل ومعتقدات خاصة بها تستحدث ألواناً مستجدة فى ميدان الأدب والفن . وهذا يتم طبقاً لنواميس اقتصادية سيرد شرحها فى الجزء التالى من هذا الفصل .

إن الفنان يأخذ من مجتمعه ويعطيه ، ويفيد منه ويفيده ، ويبتكر معانيه من الموقف الذى يقفه حيال الصراع الفكرىّ المتولد من متناقضات عصره ، وهو إذا وقف إلى جانب الجديد يتطور مع مجتمعه ، ويطوره على التوالى .

ولعل الخلاف بين المذهبين السالفى الذكر أشبه بالخلاف بين « الجبرية والخيارية » ، أو بين « المادية الآلية والفردية الخلاقة » . . . ألا يرى أحد هذين المذهبين أن الواقع هو الذى يتحكم حتى فى الفرد المتميز المبدع ، ويرسم له خطاه ، فى حين يرى المذهب الآخر عكس ذلك ، أى يرى أن الفرد المتميز هو الذى يتحكم فى واقعه ويطوره ويغيره ؟

وإذا كنا قد قلنا إن كلاً من الفرد وواقعه يتأثر بالآخر ويؤثر فيه بمقدار يتفاوت تبعاً لألمعية الفرد ، ويقظة فكره ووجدانه ، فإن هذا لا يغنى عن استعراض الآراء والأسانيد التى أدلى بها المؤيدون لكل مذهب من هذين المذهبين ، فعلى ضوء استعراضها تتكشّف الحقيقة لمن ينشدها .

مجمل ما يقوله المؤمنون بأثر البيئة الحاسم فى تحديد طبيعة الفنان ، وخصائص

أعماله واتجاهاتها ، أن الفرد وليد بيئته ، وبيئته لبنة فى بناء مجتمعها ، فهو إذن لبنة أيضاً فى ذلك البناء . . . هو جزء من مجتمعه متمم له . والجزء المتمم للكل لا يختلف عنه ، فالقطرة من الماء العكر عكرة ، كما أن القطرة من الماء الصافى صافية ! . . والأديب أو الفنان يخضع لهذه القاعدة ! فهو وليد مجتمعه كغيره من الناس ، وجزء منه متمم له ينطبع بطابعه ، وليس من الميسور أن يشذ عنه . . . إن عقله يتغذى على الأفكار والمعتقدات التى يرددها أفراد مجتمعه ، أوتتضمنها الكتب التى يتداولونها ويتأثرون بها ؛ ولذلك لا يجد مفرًّا من أن يعكس فى أعماله الأدبية أو الفنية تلك الأفكار والمعتقدات ، أو ينهج نهجها — لأن العقل لا يبتدع شيئاً من لا شىء — وذوقه متولد من الذوق العام ، ومشاعره مسايرة للمشاعر العامة . . . إنه لا يملك إلا ما يعطيه له واقعه ، بل لا يملك إلا محاكاة ما يؤثر فيه من ظواهر ذلك الواقع ، فلا عجب أن يصبح إنتاجه صورة لنشاط مجتمعه لا تتميز عنه ، ولا تتجاوز مستواه الثقافى والحضارى سموًّا أو انخفاضاً .

إن الفن يتطور مسايراً لتطور المجتمع ، فيرتقى معه إذا ارتقى ، والعكس بالعكس ، ويحدث ذلك على نحو آلى ، وعلى وتيرة لا تختلف ؛ والعامل الاقتصادىّ يقع خلف كل تطور ، فهو المنبع الوحيد لمختلف المعتقدات والأفكار ، والحافز الأول والأخير لكل نشاط . . . إنه المتحكم الأوحد فى سير الوجود ، وأثره فى تطوره حاسم .

ويستشهد أصحاب هذا الرأى على صحة ما يقررون بالشواهد التاريخية ؛ فاشتغال المجتمعات البشرية فى العصر الهمجىّ بالسعى وراء القوت ، وانصرافهم إلى ذلك طوال يومهم ، لم يتح لهم أية مندوحة من الوقت للاهتمام بالأدب والفن . لقد كانوا يعيشون ليأكلوا ، ولم يأكلوا ليعيشوا .

وفى العصر العبودىّ استطاع أصحاب المواهب من الأحرار أن يتفرغوا للأدب والفن ، فازدهرا ازدهاراً انطبع بطابع الوضع الاقتصادىّ لعصرهما ، ذلك أن طبقة المشتغلين بهما لم تكن تمارس أى عمل من الأعمال الإنتاجية المادية التى يضطلع بها العبيد وحدهم ، فلم تحتك بالواقع ، ولم تكتسب أية خبرة عملية ، فتسلط على المجتمع ذلك الوهم والخيال المتولدان من التعطل والفراغ . وكان من المحتوم أن يعكس فنها زخارف ذلك الوهم والخيال ، ويفسر الواقع تفسيراً أسطوريًّا يتصف

بالمبالغة والتهويل ، ويعجز عن التحرر من ربقة أوضاع واقعة .

أما عصر الإقطاع الذى يتمتع فيه الأمراء والنبلاء والفرسان ، دون سائر الناس ، بثمرات الازدهار المادىّ ، ويمكنهم هذا الوضع الاقتصادىّ من التحكم فى كل نشاط اجتماعىّ ، فينشأ فيه فن بعضه زخرفى ، وبعضه ملحمى حماسىّ ، وبعضه الآخر نقدى يسخر من عيوب غير المنتمين إلى الطبقة المحظوظة ، وهو بأنواعه المختلفة يتملق تلك الطبقة ، ويحاول أن يرضى أذواق أفرادها ، ويجارى أهواءهم ، ويخدم أهدافهم ، ولا يستطيع مبدعوه أن يتحرروا من أسر ذوى النفوذ والسلطان ، أو من ربقة وضعهم الاقتصادىّ .

والفنان فى ظل المجتمع الرأسمالىّ ينفعل بأهواء ذلك المجتمع وميوله واتجاهاته الفكرية وأخلاقياته ، فتنبثق أعماله الأدبية أو الفنية من نبع ذلك الانفعال . فالصراع فى المعترك الرأسمالىّ يدور حول جمع المال ، والاستزادة منه إلى أقصى حد مستطاع طلباً للمزيد من النفوذ والسلطان ، والفوز بأكبر نصيب من ألوان المتع الحسية . . . وهذا يؤدى إلى غلبة النزعة التجارية على تصرفات الناس . وقد تشتد هذه النزعة إلى حد يحمل الرجل على المتاجرة بعرض زوجته أو ابنته أو أخته ؛ أو بعقيدته أو مبدئه ، أو غير ذلك من الحرمات . والمرأة لا تعدو أن تكون فى عين الرجل مجرد وسيلة للمتعة الجسدية ، وهى تثير غرائزه الدنيا إلى حد لا يتورع معه أن يخون صديقه الزوج ، أو صديقه الأب أو الأخ فى سبيل الفوز بها وإشباع تلك الغرائز ؛ ولا يتورع فى هذا السبيل أيضاً عن خداعها بادعاء الحب الشريف ، واصطناع الظرف والرقة والنبل ، وتسخير محصوله الأدبىّ من عبارات الغزل والتشبيب ؛ وهذا وما يجرى على غراره يمد الأديب أو الفنان بالمادة التى يبتدع منها إنتاجه ، ولا معدى له عن ذلك ، فالأدب والفن يخضعان بدورهما للتحكم التجارىّ ، وينساقان إلى تصوير تلك المخازى استجابة إلى متطلبات السوق الأدبية والفنية ، ويجد الفنان الذى ينزه فنه عن الانسياق وراء هذا التيار صعوبة فى الخلاص من سلطان الاحتكار الذى هو من أهم مميزات النظام الرأسمالىّ ، فالأجهزة الإعلامية تحتكر سوق الأدب والفن ، وتتحكم كما قلنا فى الأديب والفنان ، وتعمل على ترويج أعمالها التى ترضى عنها الطبقة ذات العزوة ، وخنق أعمالهما التى لا ترضى عنها هذه الطبقة .

والجدير بالملاحظة هنا أن معتنقى هذا المذهب الذى يفسر تطور الأدب والفن تفسيراً آليًّا ، غفلوا عن ظهور أدباء وفنانين فى كل عصر لم يخضعوا لأوضاع عصرهم الجائرة ، بل ثاروا عليها ، وناصروا القوى التى تناهضها ، واضطلعوا بأكبر نصيب فى معركة القضاء عليها ، وإقامة أوضاع أخرى أكثر ملاءمة لمقتضيات التطور .

وغفلوا أيضاً عن تأثر الأدب والفن بالدور الذى تلعبه تقاليد مجتمعه ، ومعتقداته الموروثة ، والتيارات الفكرية المتناقضة التى تتناهبه ، والنفحات الأدبية والفنية التى تهب عليه من بلاد أجنبية . وسيرد إيضاح ذلك بالتفصيل فى حينه .

أما أنصار المذهب الفردىّ فيقسمون الناس إلى أفراد أفذاذ يقودون البشرية إلى الوجهة التى يرتأونها ، وجماهير تنصاع لهم ، وتنقاد إليهم انقياد الأغنام . . . والأفذاذ من الناس ذوو عقلية خلاقة يبتدعون بها الأفكار ويطبقونها .

فالفكرة عند أنصار هذا المذهب هى التى تخلق الواقع وتطوّره وتغيره ؛ أما الذى يخلق الفكرة فذهن العبقرىّ الفذ ، وكأنما هذا الذهن حقل تنبت فيه الأفكار من تلقاء نفسها دون بذور . . . فى حين أن الواقع ، عند أنصار المذهب الآخر ، هو الذى يخلق الفكرة فى ذهن الإنسان ويطوّرها ويغيرها ، والذهن يقف من ذلك موقفاً سلبيًّا ، حتى ولو كان ذهن عبقرىّ .

بيد أن هيجل يرى — كما قلنا فى الفصل الأول — أن « الفكرة » التى تطور الوجود « كامنة فيه منذ كان فى حالة انصهاره الأولى » ، وهى التى تبتدع وسائل التطور لتحقق هدفها الأسمى !

ويرى فيخت ، إمام المذهب الفردىّ ، أن كل ما يشاهده المرء على وجه هذه الأرض ، وتمتد إليه أعماله ، ليس إلا نوعاً من المظهر الحسىّ ، فى حين تكمن وراء المشاهد الظاهرية جميعها ما يسميه ذلك الفيلسوف : « فكرة الوجود المقدسية » ، وجموع الناس تشغل بتلك المشاهد التافهة ، أما رجل الأدب فمرسل إلى هذه الدنيا ليدرك « الفكرة القدسية » ، ويكشفها لنا . . فهو على ذلك « نور متألق يضىء هذا العالم ، ويقود الناس فى رحلتهم المقدسة ، المحوطة بالظلام المعرضة لعصف الأيام ! . . »

و « توماس كارلايل » ، المتتلمذ على « فيخت » ، يرى فى كتابه « الأبطال

وعبادة البطولة » أن البطل لا يكتسب بطولته من أية عوامل أو مؤثرات خارجية ، فهو يولد بطلاً ، ويختار الصورة التى يبدو عليها وفقاً لمقتضيات العصر الذى يظهر فيه . ففى عصر ما ، يبدو فى صورة إله ، وفى عصر تال يظهر فى صورة نبىّ ، ثم يظهر فى صورة شاعر ، أو صورة رجل دين أو كاتب أو ملك . . . وبما أنه بطل فهو يمتلك صفات البطولة جميعها ، ويستطيع أن يبدو فى أية صورة يشاؤها .

ومما قاله فى هذا الصدد[1] :

« أعترف أنى لا أستطيع تكوين فكرة عن وجود رجل عظيم حقًّا يعجز عن أن يصبح أى نوع من أنواع الرجال . . . فالشاعر العظيم لا يستطيع أن يتغنّى بلسان الفارس البطل إلا إذا كان هو نفسه ، على الأقل ، فارساً بطلاً . . . وإنى لأتصوره يجمع فى شخصه الرجل السياسىّ والمفكر والمشرّع والفيلسوف . . . ولا يدرى المرء أى أمر كان شكسبير يعجز عن الاضطلاع به على أرقى مستوى . . »

والأبطال فى رأى كارلايل يسيطرون على العالم ، ويرسمون له طريقه ، ويسطرون له تاريخه الذى لا معدى له عنه . قال فى ذلك[2] :

« التاريخ العالمىّ ، أو تاريخ ما حققه الإنسان فى هذا العالم ، هو فى قرارته ، بحسب ما أرى ، تاريخ عظماء الرجال الذين عملوا هنا . . . كان أولئك العظماء قادة البشر ؛ كانوا يشكّلون ، أو يفصّلون . . . أو بمفهوم أوسع ، كانوا يخلقون ما جاهدت الجموع العامة من الناس فى سبيل تحقيقه . وكل الأشياء التى نراها قائمة متحققة فى هذه الدنيا هى فى الواقع نتيجة مادية خارجية لأفكار كانت تعمر نفوس العظماء المرسلين إلى العالم ، أو هى تحقيق عملىّ وتجسيد لها . . . وروح التاريخ العام بأسره يمكن اعتباره بحق تاريخ أولئك العظماء . . .

« الرجل العظيم نبع حى من ضياء . . . هو الضوء الذى ينير . . . أو الذى أنار ظلمات هذا الوجود . . . وهو ليس شبيهاً بضوء مصباح ، ولكنه أشبه بضوء طبيعى لألاؤه هبة من السماء » .

---

(١) كتابه المذكور ص ٧٣ .

(٢) صفحة ١ ، ٢ من كتابه المذكور .

وقال كارلايل أيضاً [١] :

« إنه لمشهد عجب أن نرى البطل ، وهو فى سترة رثة ، يحكم بعد موته ، وهو ثاو فى قبره ، أمماً وأجيالاً لعلها كانت تقبل منحه الخبز فى حياته أو لا تقبل ! . . . نعم يحكمها ، فهذا ما يضطلع به فعلاً » .

يعيب هذه الآراء أنها تصوّر البطل قادراً على تحقيق الخوارق والمعجزات ، بل تبالغ فى ذلك مبالغة لم يتوصل إليها حتى خيال مبدعى الأساطير الخرافية ، أو قصص المغامرات الوهمية العجيبة التى راجت فى أوربا خلال القرون الماضية ، ولا تزال تواصل رواجها فى أمريكا إلى اليوم .

إن البطل فى زعم أنصار هذه الآراء يقف فى مواجهة مجتمعه ، بل فى مواجهة العالم بأسره ، ويفرض عليه معتقدات وآراء يبتدعها ابتداعاً دون أن تكون لها صلة بالواقع ، فيغيرّ بها الواقع ، ويقود مجتمعه ، أو البشرية جمعاء ، إلى حيث يشاء .

إن المؤيدين لمثل هذه الآراء يضعون البطل خارج مجتمعه ، أو فوق مجتمعه ، فى حين أنه ــ أيًّا كانت قدراته ــ جزء لا يتجزأ من ذلك المجتمع وضعته ظروفه وصفاته فى موضع الصدارة منه أو موضع القيادة ؛ وهو يستمد من زعامته له القوة والخبرة والرأى والمعرفة . وعلى قدر أصالته يزداد بذلك قوة وخبرة وحسن رأى ومعرفة . وإذا بدا أنه يقف فى بعض الأحيان ضد إجماع قومه ، ويسوسهم على غير النحو الذى يرتاحون إليه ، ويفرض عليهم غير معتقداتهم وآرائهم ، فهذا لا يتفق والواقع لأن الفرد قويّ بجماعته ، ضعيف بمفرده مهما بلغ من قوة ، وهو حين يبدو واقفاً موقف المعارضة من المجتمع بأسره لا يقف وحده بحال ، فليس فى وسع مخلوق أن يعارض الجموع بمفرده ، ويملى عليهم إرادته قسراً عنهم ، وإنما هو ينحاز فى الموقف الذى يتخذه إلى أنصار ذوى سلطان . . إلى إحدى القوى المتنافرة المتصارعة داخل كيان المجتمع ، ويستعين بها على مناهضة القوى الأخرى ، فإذا انحاز إلى قوة تقدمية مكن التطور من الإسراع فى خطواته والعكس بالعكس . وتتوقف درجة إسراع التطور فى تقدمه ، أو رجوعه القهقرى ، على قدر ما يتمتع به البطل من قدرة قيادية .

---

(١) الكتاب نفسه ص ١٤٣ .

ويستهدف أشياع هذا المذهب فيما يستهدفونه من نسبة القدرات المعجزة إلى الأبطال والمتميزين ، وخلع هالات من العظمة والمجد على هاماتهم ، أن يبرروا — فيما يبررون — نزعة التميز الطبقى والعنصرى ، وسيطرة الرجل الأبيض على الأمم المتخلفة اقتصاديًّا ، ويفسروا احتلاله لبلادها ، وتصرفه فى شئونها ، بأنه سعىٌ إنسانىٌ منه لتخليصها من براثن الفقر والجهل والمرض ، ورفع مستوى معيشتها ، فى حين أن الغاية الحقيقية من حكمه ، كما نعلم نحن بالخبرة والتجربة ، هى على نقيض ما يزعمون .

٢ ـ أثر المجتمع فى تطور الأدب والفن

لا يحسب أحد أن التوفيق بين المذهبين السالفى الذكر ، أى القول بأن كلاًّ من الفنان ومجتمعه يتأثر بالآخر ويؤثر فيه ، وأن هذا التأثير والتأثر المتبادلين بينهما هما اللذان يؤديان إلى تطورهما وتغيرهما ... لا يحسب أحد أن هذا التوفيق يجلو الحقيقة كاملة ، فإن هناك عاملاً آخر سريع الأثر ، لا يتدرج بكل من الفنان ومجتمعه فى مدارج التطور خطوة خطوة ، ولكنه يقفز بهما من مرحلة تطورية معينة إلى مرحلة تطورية أخرى تختلف عنها فى خصائصها واتجاهاتها .

إنّ عجز أنصار المذهبين المذكورين ، والموفقين بينهما ، عن تبين الحقيقة كاملة ناشئٌ من قصور نظرتهم إلى المجتمع ، فهم يرونه وحدة لا تنقسم على نفسها إلى طبقات وأحزاب مصالحها متضاربة ، وميولها وأهواؤها متنافرة ؛ أو هم ، على الأقل ، يغفلون عن أثر هذا الانقسام والتضارب والتنافر فى تطور المجتمع والفن على السواء . . . وإذا كان هناك أناس ينسبون تباين الأعمال الأدبية والفنية شكلاً ومضموناً ، وتنوع اتجاهاتها وأهدافها ، إلى اختلاف طبائع الفنانين وأمزجتهم ، فإن ذلك التباين والتنوع يرجعان فى حقيقة أمرهما إلى الانقسام والتضارب والتنافر الذى يتناهب المجتمع .

وقد ألقى « أوجوست كورنو » ضوءاً على هذه الحقيقة بقوله[1] :

---

(١) كتابه السالف الذكر ص ٣١ .

« كل حقبة من الزمن تقدم ، فى الواقع ، حلولاً مختلفة للمشكلات الرئيسية التى تنشأ من إقامة مفهومنا للعالم على أساس تطوره الاجتماعى والاقتصادى . . . وهذه الحلول تفسر اختلاف مصالح الطبقات الكبرى وميولها ، وهى تفرض على المفكر والكاتب والفنان موضوعات عامة ، وأفكاراً متناقضة تعبر عن التطور المختلف الاتجاهات لهذه الطبقات المتعادية المتخاصمة . . . موضوعات تعارض الواقع بالفعل الإرادىّ التعسفى ، أو برفض الواقع ، أو الهروب منه ، أو الاستسلام للموت . . . وهذا جدير بالطبقة التى دالت دولتها . . . وموضوعات تبرر الحاضر وتعتذر عن معايبه ، وهى تعبر عن الطبقة ذات النفوذ والسلطان . . . وموضوعات عن المقبل المستجد ، عن الأمل والثقة بالحياة . . . وهى تعبر عن الطبقة النامية الصاعدة . . . » .

ولا بأس من وضع الرأى المتقدم فى صيغة أخرى قد تكون أبسط وأوضح . . . إن كل مجتمع يتنازعه تياران فكريان عاطفيان رئيسيان يناقض كل منهما الآخر ، أحدهما متولد من سخط الطبقة التى دالت دولتها على الحاضر المتجهم لها ؛ وهو يعبر عن ضيقها بذلك الحاضر ، وحنينها إلى الماضى ؛ ويصور الماضى فى صورة العصر الذهبى الذى لا تتوفر السعادة لإنسان إلا فى ظله . . . والتيار الآخر منبعث من ميول الطبقة ذات السلطان ، وهو يحتفل بالحاضر ، ويصوره فى أبهى صوره ، ويبرر ما يشوبه من عيوب . . ومن ثنايا ذلك المعترك الفكرىّ يتولد تيار جديد يعبر عن طبقة عانت الخسف فى ماضيها وحاضرها ، وأرغمتها ظروفها الماضية السيئة على احتمال ذلك الخسف ؛ بيد أنها بدأت تنمو بعد ذلك وتقوى وتتمكن من التعبير عن أملها فى مستقبل أسعد . . .

والصراع السياسىّ والفكرىّ الدائر بين هذه الطبقات بسبب تعارض مصالحها الاقتصادية هو الذى يؤدى إلى نشوب الثورات ، وانتزاع الطبقة النامية زمام الحكم من الطبقة المتداعية ، وإحلال النظام السياسى الملائم لها محل القديم ؛ وهو الذى يؤدى كذلك إلى نضال يشتعل فى ميدان الأدب والفن بين مختلف تياراته التى يؤيد كل منها أو يعارض المثل الفكرية ، والقيم الأخلاقية الخاصة بكل طبقة من تلك الطبقات . ومن ثنايا هذا النضال تتولد الموضوعات الأدبية والفنية ، وتتفرّع الأفكار

والمعانى ، ويتغلب جديدها على قديمها فى ميدان الفن تبعاً لتغلب القيم الجديدة على القديمة فى ظل النظام السياسىّ القائم الملائم لازدهارها .

وأصحاب هذا التفسير لتطور الأدب والفن يستشهدون بوقائع التاريخ الأوربى لتأييد وجهة نظرهم ، فيقولون فى هذا الصدد إن النظام العبودىّ الذى يعيش « الأحرار » فى ظله على كد العبيد يصبح ، بعد وقت ما ، عقبة تحول دون تقدم مجتمعه ، وذلك عندما يطمع أولئك الأحرار فى قدر أكبر من الإنتاج الزراعى والصناعى ليسدوا حاجات التجارة ، ويضاعفوا أرباحهم التجارية ، ويستزيدوا من أسباب رغد العيش ؛ ولكن يعوزهم العدد الكافى من العبيد لمد رقعة الأراضى الزراعية ، وتوسيع نطاق الأعمال الصناعية « اليدوية » ، فيفتحون أبواب العمل للفقراء المعوزين نظير حصولهم على لقمة العيش . . . ومن ثم يزدادون غنى ، ويزيدون الفقراء فقراً . ولا يلبث أصحاب الضياع الكبيرة من أولئك الأغنياء أن يغير بعضهم على بعض ، ويتغلب قويهم على ضعيفهم ، ويضم أرضه إلى أراضيه ؛ وتشتد هذه الغارات وتتوالى حتى تسفر عن تمكن الأقوى فى كل قطر من بسط نفوذه على أصقاع واسعة ، وتنصيب نفسه أميراً لها ، وخلع ألقاب الشرف على الفرسان الذين عاونوه فى حروبه ، وإقطاعهم ما اغتصب من إقطاعيات زراعية ، وتمكينهم من رقاب عامة الناس . . . وتعم هذه الحال مختلف الأقطار فتنتقل مجتمعاتها عندئذ من العصر العبودىّ إلى عصر الإقطاع ، وينقسم الناس إلى طبقتين تتكون إحداهما من أولئك الفرسان « الأشراف النبلاء » ، وتحتكر لنفسها السيادة ؛ وتتكون الأخرى من عامة الناس الخاضعين لتلك السيادة .

ويطمع أولئك الأمراء والنبلاء بدورهم فى مزيد من أسباب العز والرفاهية ؛ فيشتد نشاط الصناعة والتجارة لإشباع رغباتهم ، وتلبية طلباتهم المتزايدة ، كتشييد القصور ، وفرشها بالرياش الفاخرة ، وتزيينها بالتحف النادرة ، وتزويد السادة بالثياب الأنيقة ، والأسلحة المصقولة ، وإمداد الجيوش بأدوات الحرب ، واستيراد السلع التى يتعذر صنعها محلياً ، من البلاد الأجنبية . ثم يحدث تطور فى الوضع الاقتصادىّ والاجتماعى بعد نمو طبقة وسطى من التجار ورؤساء الحرف ، وأصحاب المهن والأدباء والفنانين الذين ينشطون لرفع مستوى المعيشة فيكتسبون الخبرة والفطنة

والمعرفة ، وتنمو علومهم وفنونهم ، ويزداد غناهم ، ويشعرون بخطورة شأنهم ، وتميزهم عن الطبقة المتحكمة فى رقابهم ، وأحقيتهم فى وراثة السيادة عنها . وعندما يبلغ رجحان كفتهم على كفتها حداً معيناً ، يتحتم تغير الوضع ، ويتمكنون من استثارة ثورة الجماهير على الطغاة ، ثم ينجحون فى القفز إلى كراسى الحكم ، والإمساك بزمامه ، وإحلال النظام الرأسمالى محل النظام الإقطاعى .

وفى ظل النظام الجديد تزدهر الصناعة ازدهاراً لم يسبق له مثيل ، فتنشأ المصانع الكبيرة ، ويحل الإنتاج بالجملة محل الإنتاج اليدوى ، ويتكاثر عدد العمال حتى يصبحوا طبقة لها خطرها ، ويزيدهم العمل الصناعى خبرة وفطنة فيدركون بدورهم مدى ما يلحق بهم من غبن يزداد بازدياد الطمع المستبد بأصحاب رءوس الأموال ؛ ويشعرون بقوتهم وهم متجمعون فى المصانع ، وبقدرتهم على الكفاح فى سبيل إحقاق حقهم . ومن ثم يبدأ الصدام بينهم وبين أصحاب العمل . ويعطف عليهم المفكرون المناضلون للظلم ، ويدافعون عن قضيتهم ، فيشد ذلك من عضدهم ، وتسارع الحكومات عندئذ إلى التدخل حتى لا يؤدى ذلك الصدام إلى الإضرار بالإنتاج الصناعى ، وتسن قوانين عمالية تستهدف التخفيف من سخط العمال ، وتعجز هذه القوانين عن تحقيق الهدف منها . ويرى بعض المفكرين ألا حل إلا بإقامة نظام اشتراكى عادل ، ولكن الاشتراكية التى راودتهم فى بادئ الأمر كانت اشتراكية وهمية ، أو كانت مجرد حلم .

ويحدث تطور فى الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، وتزداد الطبقة العاملة المسخرة قوة بعد أن يزداد وعيها نمواً ، وتتمكن فى بعض البلاد من تحقيق النظام الاشتراكى . وتتهيأ الظروف لبزوغ فجر عصر جديد يسود فيه هذا النظام بعد تقوض النظام الرأسمالى فى أرجاء العالم بأسره .

هذا هو تفسير فلاسفة المذهب المادى الجدلى لتطور المجتمعات ، وهو مؤيد بما حدث فى أوربا منذ انتقالها من العصر القديم إلى العصر الوسيط فالعصر الحديث . ويمكن انطباقه على البلاد ذات التربة الخصبة ما دام التطور يجرى فيها طبيعياً لا تصادفه ظروف غير ملائمة ، ولا تعترضه عقبات خارجية تعوقه أو تغير مجراه ؛ فالشجرة مثلاً تنمو وتتطور وتثمر طبقاً لقانون لا يختلف ما دام زارعها اختار لغرس

نواتها أرضاً خصبة هيّأها للزرع ، وتعهدها بالرى والتسميد ، وما دام مناخ المكان ملائماً لنموها وإثمارها . ولكن إذا تغير المناخ فجأة وأصبح غير ملائم لها ؛ أو إذا اقتلعتها الريح ، أو قطعت جذعها فأس ، أو طرأ عليها طارئ من هذا القبيل ، فهو يقضى عليها ، ولكنه لا يصبح مع ذلك مبرراً لإنكار قانون نموها وتطورها .

نخلص من ذلك إلى أن تدرج المجتمعات فى هذه المراحل من التطور لا يحدث إلا فى البلاد الزراعية ، ولا يتصور حدوثه فى بلد صحراوىّ كالجزيرة العربية مثلاً ؛ كذلك لا يتصور استمراره فى حالة تعرضه لقوة خارجية باطشة توقف حركته — ولو لأمد — أو تغير اتجاهه . . . وهذا بطبيعة الحال لا يدحض القانون العام لتطور المجتمعات .

وقد حدث فى أوربا أن نشب ، إلى جانب النضال السياسىّ الذى أدى إلى تعاقب كل من طبقة النبلاء ، والطبقة الوسطى ، وطبقة الأغلبية الشعبية على مسرح التاريخ ، نضال فى ميدان الأدب والفن بين مختلف تياراته التى يعبر كل منها عن معتقدات إحدى تلك الطبقات الثلاث ، وقيمها الأخلاقية ، ويكرّس الإبداع الفنىّ لإبرازها فى أسمى صورها ، وتمكينها من القلوب والعقول . وفى كل عصر يطغى التيار الذى يعبر عن معتقدات الطبقة ذات السلطان على ما عداه ، حتى إذا نمت الطبقة الجديدة المعادية للطبقة الحاكمة ، وازدادت قوة ومنعة ، وأصبحت ذات خطر ، واستطاعت النيل من خصومها ، وزعزعة أركان دولتهم ، اشتد التيار المعبر عن آمالها ومثلها الفكرية ، وأصبح له خطره بدوره ، واشتعل الصراع الدائر بينه وبين التيار السابق ، ورجحت بالطبع كفة الجديد الفنىّ على القديم المتداعى ، وأصبح انتصاره محتوماً ؛ ففى حومة ذلك النضال تسقط معتقدات وأفكار عتيقة كانت دعامة نظم وعروش ، وتنبثق أفكار ومعتقدات مستجدة تصبح ، بعد اعتناق الجموع لها ، دعامة نظم أكثر جدة وملاءمة للتطور الحضارىّ .

الأدب والفن يجاريان التطور الطبقى إذن فى تطورهما ، فظهور ألوانهما الجديدة رهين بظهور الطبقة النامية التى تجد فى تلك الألوان تعبيراً عن أمانيها ومثلها الفكرية ، كما أن نمو تلك الطبقة إيذان بازدهار الألوان الأدبية والفنية الجديدة ، فكل منهما مقدّر له أن يكون مع الآخر على ميعاد .

إن الأفكار والمعانى تعجز فى ذاتها — كما قال أحد الفلاسفة — عن مجابهة القوة المسلحة ، ولكنها تصبح أشد منها فتكاً حين تعتنقها الجماهير . . . والذى يتتبع الدور الذى لعبته الأفكار والمعانى فى حركة التطور التاريخىّ يدرك مدى خطورة نضالها فى هذا المجال . ونحن لن نتحدث هنا عن ذلك النضال وأثره فى تطوير أوربا ، والانتقال بها على التعاقب من مرحلة تطورية إلى مرحلة تطورية أجدّ منها ، فهذا حديث مطروق ، وكل ما يقال عن الخصائص التى تميز بها أدب كل طبقة من تلك الطبقات ، وعن المعتقدات التى زيّنها وروّجها ليخدم بها أغراض الطبقة التى يؤازرها ، لن يكون إلا قولاً معاداً .

والميدان البكر الذى لم يتناوله تطبيق هذا التفسير للتطور التاريخى هو الشرق الأوسط فى العصر القديم ؛ وجدير بنا ، ونحن من أبنائه أن نحاول إلقاء الضوء على تطور بعض بلدانه فى ذلك العصر لنرى إلى أى مدى ينطبق التفسير المذكور عليها .

وبمراجعة تاريخ مصر القديمة — وهى بلد زراعىّ — يبدو أنها مرت بالمرحلتين الأوليين من مراحل التطور الثلاث التى ذكرناها ، ثم عصف بها الغزو الأجنبىّ فلم يحل دون سيرها قدماً فى طريق التطور فحسب ، ولكنه نكص بها الوراء .

لقد بلغ عصر الإقطاع فيها ذروته عندما تربع فراعنتها الأول على عرشها . ولم يكتف أولئك الفراعنة ببطش جندهم لتثبيت سلطانهم ، وإخضاع الشعب لإمرتهم ، ولكنهم توسلوا إلى ذلك أيضاً بالمعتقدات الدينية التى روجها كهنتهم ، وبالقصص الأسطورية التى صاغها الأدباء من أولئك الكهنة ، وقصائد المديح التى صاغها لهم الشعراء من رجال بلاطهم .

وكانت هناك ظروف مهيئأة لانتشار تلك المعتقدات الدينية ، والأعمال الأدبية ، وسيطرتها على عقول أفراد الشعب ، فإن انتقال مصر من العصر القبلى إلى العصر الزراعى كفل لأبنائها بعض الاستقرار الذى لم ينعم أجدادهم بمثله ، ولكن كانت للزراعة آفاتها ؛ وللطبيعة تقلباتها الجوية التى تتهدد الغرس ؛ وللنيل فيضانه الجارف وتماسيحه وأفراسه ؛ وللأقوياء بطشهم واستغلالهم للفقراء والضعفاء ؛ فلا عجب إذا وجد الشعب نفسه ، وسط هذه الظروف ، فى أشد الحاجة إلى

حكومة مركزية قوية تحميه غوائل الطبيعة وشرور الإنسان ؛ ولا عجب كذلك إذا آمن بقول الكهنة عن فرعون إنه إله ابن إله ، وإنه حامى الحمى وولى النعم ، وإن غضب السماء على أى مخلوق أو رضاها عنه مستمدان من غضبه ورضاه ؛ ولا مناص للشعب من الخضوع له فهو مالك الأرض ومن عليها . . . وقد زين الشعراء هذه المعتقدات بصياغتها فى منظومات جذابة ، وفى الأبيات التالية مثال للصفات التى يسبغها ناظموها على فرعون :

« عيناه تخترقان كل جسم . . .
هو رع . . . هو ينظر بأشعته
وهو يضيئ مصر أكثر مما تضيئها الشمس .
وهو يجعل الأرض تزدهر أكثر من نيل مرتفع
وهو يجود بالقوت على من يتبعه » .

وابتدع له المثالون والمصورون تماثيل وصوراً خلعوا عليها من مظاهرة العظمة والجلال ما يملأ القلوب رهبة . والمجال لا يتسع للاسترسال فى تعداد الأعمال الأدبية والفنية التى عملت على توطيد سلطانه .

وكان للأمراء والنبلاء وغيرهم من أصحاب السلطان نصيب من اهتمام الأدب بهم ، وعمله كذلك على إرضائهم وتوطيد نفوذهم .

وإلى جانب المعابد والهياكل والأهرام التى كفلت الهيبة للمعتقدات الوثنية استلهم مهندسو المبانى عملهم وفنهم لتشييد القصور والمقابر اللائقة بسكنى الطبقة ذات السيادة فى حالتى حياة أفرادها ومماتهم . ونشطت الصناعة والتجارة لسد حاجة أولئك السادة إلى المظاهر التى لا ترضى ذوقهم فحسب ، ولكنها ترضى زهوهم أيضاً ، وترفع مكانتهم بين الناس ، فأمدتهم بالرياش والتحف الثمينة ، وبالثياب الفاخرة ، والحلى البديعة الصنع مما لا يزال بعضها يتحدى الزمن ، ويقوم اليوم شاهداً على المستوى الرفيع الذى بلغه الإنتاج المعمارى والصناعى فى تلك الأيام الموغلة فى القدم .

وترتب على ذلك قيام طبقة متوسطة ممن حققوا ذلك الإنتاج ، وهم المهندسون ، ورؤساء مختلف الحرف ، والتجار . . . ومن الذين اشتغلوا بمختلف المهن التى احتاج إليها نمو هذه الطبقة المطرد ، وتزايد طلباتها المعيشية ، وتصادم مصالح

أفرادها ، ومن الموظفين العموميين الذين تكاثر عددهم ، وتنوعت وظائفهم ، نتيجة لتكاثر أفراد تلك الطبقة .

وصقل العمل مواهب أولئك العاملين ، وأنمى خبرتهم وفطنتهم ، وعمق تفكيرهم ؛ وضاعف غناهم ، ووطد مكانتهم إلى الحد الذى يحدث لهم فيه ما لابد من حدوثه فى مثل هذه الحالة ، وهو شعورهم بكيانهم الطبقى ، وتميزهم عن سادتهم علماً وفطنة وقدرة على الإبداع ، وتطلعهم عندئذ إلى التحرر من ربقة أولئك السادة ...

ولم يغب عن فلاسفة تلك الطبقة وشعرائها ، بعد وصولها إلى هذه المرحلة من التطور ، إن تحقيق أملها فى الحرية يتوقف على تحرير الشعب من تلك المعتقدات الوثنية التى يستعبده سادته بأضاليلها ، فاستثارهم ذلك إلى نظم قصائد وأغان سخروا بها من تلك المعتقدات وسفهوها ، وحذا الفنانون العاطفون على تلك الطبقة حذوهم فتحولوا إلى ابتداع أعمال فنية عكسوا فيها ألوان نشاط طبقتهم ، واشتد هبوب ذلك التيار الأدبى والفنى الجديد ، واصطدم بالتيار المستمسك بالقديم ، المنافح عن مثله ومعتقداته ، وطال النضال المستعر بينهما ، وأخذ ميزان القوى فى معمعانه يتغير شيئاً فشيئاً ، ويشق الجديد المبتكر طريقه إلى الأمام خطوة فخطوة . . .

وفيما يلى نماذج من الشعر الجديد الذى ظهر فى تلك المرحلة من مراحل تطور مصر القديمة :

« تتلاشى الأجساد وتفنى
فى حين غيرها يبقى من عهد الأجداد .
والآلهة الذين عاشوا فى الأزمنة الغابرة
يستقرون فى أهرامهم
وكذلك الأشراف والنبلاء . . .
ماذا حدث لهم ؟ كيف حالهم ؟
تهدمت جدرانهم وصارت كأن لم تكن
ابتهج ودع قلبك ينسَ . . .
ضع الطيب على رأسك وتحلَّ بأفخر الثياب
ابتهج ولا تدع قلبك يقنط

أنجز أعمالك على الأرض ولا تعذب قلبك . . .
فلن يسمح لأحد بأن يأخذ متاعه معه . . .
ولا أحد ممن ذهب يعود . . .[١] »

والأبيات التالية تؤكد المعانى المتقدمة :

« إذا فكرت فى الدفن فهذا شىء محزن
إنك لن تصعد إلى السماء وترى الشمس
فانعم باليوم السعيد وانس الأحزان[٢] » .

وفى الشعر التالى تصوير لتهالك تلك الطبقة على المتع التى أتيحت لها :

« أعطينى ثمانى عشرة كأساً من النبيذ .
انظرى . . . إنى أحب أن أشرب حتى أثمل ،
فجوفى جاف كالقش . . . [٣] »

وعبر الشاعر فى الأبيات الغنائية التالية عن فرحة تلك الطبقة بالقدر الذى فازت به من الحرية واليسر :

« فى صحتك ! . . .
اشربى حتى تثملى ،
واحتفلى باليوم السعيد
ولا تضيقى ذرعاً بالسرور[٤] » .

وقبيل انهيار الدولة القديمة فى مصر استفحل نفوذ تلك الطبقة ، وازداد غناها إلى حد زلزل العرش ، وصدع أركان الحكومة الإقطاعية ؛ وقد بعث الحكيم « إيبوؤر » يومئذ برسالة إلى فرعون وصف فيها تلك الحال من وجهة نظره . وفيما يلى مقتطفات من تلك الرسالة الشهيرة :

« انقلبت أوضاع المجتمع ، فالأشراف ينوحون ، أما المعدمون فأصبحوا فى

---

(١) كتاب مصر والحياة المصرية القديمة تأليف « إرمان » وترجمة الدكتور أبو بكر ص ٤٣١ ، ٤٣٢ .

(٢) الكتاب المذكور ص ٤٣٣ .

(٣) الكتاب المذكور صفحة ٤٣٣ .

(٤) ص ٤٣٠ من الكتاب المذكور .

بهجة ؛ والذين كانوا يرفلون فى الثياب الأنيقة أصبحوا فى أسمال بالية ؛ والذى كان يستجدى جرعة ماء أصبح يشرب الجعة القوية ؛ ومن لم يكن يملك رغيفاً صار يملك مخزناً للغلال ؛ ومن لم يكن لديه ثور واحد صارت لديه ثيران . . . لقد أصبح الفقراء يمتلكون كل شىء . . . » .

ولكن الأمر لم يستتب لتلك الفئة الوصولية ، ولم يتسع لها وقت كاف لتولى زمام الحكم ، فقد لمس الشعب فى تصرفاتها جشعاً لا يشبع ، ورغبة فى الاستزادة من الثروة والنفوذ لا تقف عند حد ، وهاله أن ترث عن الطبقة الحاكمة سلطانها وغناها فى حين يتضور هو جوعاً ، ويظل يكابد الذلة والهوان ، فثار ثورته العارمة التى قضت على آخر فراعنة الدولة القديمة ، وأطاحت بحكومتها التى لم تتمكن حكومة أخرى من أن تحفلها ، وساد النهب والسلب ، وعمت البلاد فوضى استمرت قرنين من الزمان ، وتدهورت الحالة الاقتصادية إلى حد جعل احتمالها غير مستطاع ، وألحت الحاجة إلى استتباب الأمن والنظام ، وآثر الشعب تحت وطأتها أن يعود إلى الحكم الفرعونى الاستبدادىّ من جديد ، وقامت حكومة فرضت النظام الإقطاعى ثانية ، واستعاد النبلاء سابق نفوذهم ؛ ثم دار الزمن دورته فبدأت طبقة وسطى جديدة تظهر وتنمو فى ظل ظروف شبيهة بالظروف التى هيأت للطبقة الوسطى السالفة نموها وازدهارها . ثم قطعت سلسلة ذلك التطور الطبيعى الجديد غزوات أمم أجنبية احتلت البلاد على التوالى ، ولم يقدر للطبقة الوسطى أن ترث الحكم هذه المرة أيضاً ، وأن يزدهر أدبها ازدهاراً شبيهاً بازدهار الأدب البورچوازى بعد نجاح الثورة الفرنسية ، واستيلاء البورچوازية على زمام الحكم .

وإذا عرجنا ثانية على بلاد الإغريق لنتتبع أثر نظامها الاجتماعى العبودىّ فى حركة آدابها نجد أن مجتمع أحرارها الذى أبيحت فيه الملكية الفردية ، والمنافسة الحرة غير المقيدة بأنظمة وقوانين — فى سبيل جمع المال ، انقسم إلى فريقين من الناس ، فريق القلة التى انفردت بالغنى والسلطان ، وفريق الجموع الشعبية التى ازدادت على مر الأيام فقراً وهواناً بتحول المال ، والنفوذ المرتبط به ، إلى ذلك الفريق الأول .

وقع صدام بين هذين الفريقين نتيجة لتصادم مصالحهما . وقد رأى بعض

ذوى الرأى فى أثينا ، وعلى رأسهم الفيلسوف أفلاطون ، أن تأخذ دولتهم بنظام الحكم الاشتراكى المطبق بنجاح فى سبارتا حتى لا تتمزق وحدة أمتهم . واتسع نطاق المطالبة بهذا النظام . . . فهل وقف الأدب الإغريقى بمعزل عن هذا المعترك ؟ إن الرجوع إليه يدل على أنه انقسم إلى تيارين أحدهما يعبر عن معتقدات الأغنياء ، ويعمل على تثبيت الأوضاع القائمة عن طريق مباشر أو غير مباشر ، والآخر يقف إلى جانب الفريق الآخر وينتصر له . . . هذا بالإضافة إلى تيار آخر يعيش فى الماضى ، ويتغنى بأمجاده . . . والمقام لا يتسع ، فى شرح ذلك ، إلا للتعميم دون التفصيل .

اعتاد مؤلفو التراجيديا الإغريقية أن يقتبسوا موضوعاتهم من القصص الأسطورية الشائعة فى زمانهم . أما مؤلفو الكوميديا فلم يتيسر لهم ذلك نظراً إلى ما كان للمعتقدات الأسطورية الوثنية من قداسة ، ولم يجدوا مناصاً من التحول إلى واقعهم الاجتماعى التماساً للموضوعات التى تصلح للسخرية ، ومن ثم ظهرت لأول مرة فى بلاد الإغريق أعمال أدبية مستوحاة من عالم الواقع ، لا من عالم الأساطير الخرافية .

بيد أنه لم تلفت نظر أولئك المؤلفين إلا مشكلة واحدة من مشكلات مجتمعهم هى مشكلة الفارق الطبقى الذى تفاقم حتى أثار ثورة الفقراء على من غبنوهم ، وعلى الوضع المذل الذى نغصهم واستنفرهم إلى المطالبة بتطبيق الاشتراكية للخلاص من الحيف الذى حاق بهم . وقد دلت معالجة أولئك الكتاب لهذه المشكلة وسخريتهم من الاشتراكية على فهمهم البدائى لهذا المذهب ، كما دلت على افتقارهم للموهبة الإبداعية ؛ فقد عالجوا المشكلة المذكورة علاجاً مباشراً ، ونظر كل منهم إليها من نفس الزاوية التى نظر منها زملاؤه ، وكرر الرأى الذى رأوه ، وردد المعانى التى رددوها .

حسبوا أن الاشتراكية تبيح لأفراد المجتمع اقتسام خيراته ، وتعد حصول كل منهم على نصيبه من تلك الخيرات حقاً مقرراً له بغير قيد أو شرط ، وزعموا أنه لا يكون فى هذه الحالة داع يدعو إلى العمل ، وعندئذ ينضب معين الإنتاج ، فإنتاج العبيد حق للسادة وحدهم ، أما عامة الناس فينبغى أن يعملوا ليسدوا حاجاتهم بأنفسهم .

ومن المسرحيات الكوميدية المشار إليها مسرحية « الفُرْس » للشاعر فيريقراط . وقد دار فيها حوار بين الفقر والثراء نقتطف منه ما يلى :

الفقر : العمل والعزيمة مصدرا السعادة الأساسيان .

الثراء : وما الداعى إليهما ؟ ألا تعلم أن الجداول ستجرى ممتلئة بدل الماء حساء ودهناً ولحماً مسلوقاً ؟ وأن أغصان الأشجار ستمتد إليك محملة بالخبز والجبن والشواء ؟

ولا يقصد كاتب هذه المسرحية بالثراء المذكور ثراء الطبقة ذات المال والسلطان فهى ذات « حق طبيعى » فى التمتع بخيرات الدنيا ، ولكنه يقصد الثراء الذى ينشده الفقير لينعم برغد العيش دون أن يعمل ، وهذا واضح من رد الثراء على الفقر .

والكاتب لا يعد العمل والعزيمة مصدرى السعادة الأساسيين إلا بالنسبة للفقراء فقط ، ولعله قصد أن يحببهما إليهم ليخفف من حدة تذمرهم ، ومن غلواء سخطهم على الأغنياء .

وهناك كوميديا أخرى تنسج على نفس المنوال هى كوميديا « العصر الذهبى » للشاعر « أو پوليس » . فالعصر الذهبى المقصود هو عصر الاشتراكية ، وهو ليس ميسور التحقيق ، وولكنه مجرد حلم يداعب خيال الكسالى . والحوار يدور فى هذه الكوميديا بين رجلين يشيد أحدهما بمزايا الفقر ، ويعدد الآخر مزايا الغنى . ثم يكرر الكاتب نفس المعانى المتقدمة فيقول عن المتطلع إلى الغنى إن أمنيته أن يمتد الماء من النهر حتى يصل إلى حوضه ، ثم ينصبّ من تلقاء نفسه على جسمه ليغسله . وتسعى الملابس إليه لتستر جسده ، ويزحف الحذاء إلى قدميه . . .

وردد الشاعر « تيكليدس » أيضاً نفس المعانى فى مسرحية الكوميدية «أمفيكسيون» فقد جاء فيها : « عاد أمفيكسيون إلى الأرض ثانية — وهو ملك أسطورى قيل إنه حكم أثينا فى زمان ما — ونشر السلام والرخاء بين الناس ، فتبدد الخوف والألم والعناء ، وجرت الخمر تحت أقدام الناس أنهاراً ، وتدلت الأغصان فوق الرءوس ، ومدت إليها مختلف الفطائر ، وتسابقت فيما بينها لترضى الإنسان ، وحامت الطيور مقلية ومشوية ، ودخلت الأفواه آمنة مطمئنة » .

ونذكر للشاعر أرسطوفان وهو أشهر كاتب مسرحى إغريقى ، وأخطر مدافع

عن الرجعية — مسرحيتين من أشهر مسرحياته ، أولاهما كوميديا « جمعية النساء » ، وملخصها أن نساء أثينا حاولن معالجة اختلال الوضع الاقتصادىّ فى مدينتهن على أساس أنهن أكثر خبرة من الرجال بشئون الاقتصاد ، وأدرى بطرق حل مشكلاته . وعقدن اجتماعاً حضرن إليه فى ملابس الرجال ، ورأست الاجتماع سيدة تدعى « براكساجورا » ، ورأت لحل المشكلة الاقتصادية فى المدينة أن يتمتع أهلها بخيراتها على قدم المساواة . واقترحت إقامة ولائم كبرى فى كل يوم تتسع للشعب الأثينى بأسره . . . ولكن حدث عند تنفيذ الفكرة أن هجمت جموع الناس على المأكولات الممتازة ، وأعرضت عن غيرها . . . فساد الهرج والمرج ، ونشب بين الناس عراك دموىّ انتهى بتحطيم الموائد ، وبعثرة الطعام . . . والكوميديا الثانية هى المسماة « پلوتون » ، وموضوعها مستمد من إحدى الأساطير الإغريقية ؛ فپلوتون هو إله الثراء ؛ وكان أعمى يبعثر المال على الناس بلا تمييز . . . وسأله أحد الفقراء يوماً : « لماذا لا تعدل فى توزيع المال ؟ » فأجاب : « كنت أحاول فى صباى أن أخص الأخيار بالمال ، ولكن كثرته كانت تفسدهم . . . لذلك أعمانى زيوس حتى لا يفسد الناس أجمعون » .

وسعى الساعون لرد الإبصار إلى پلوتون ، فقال الفقر لأولئك الساعين : « أتريدون طردى من بلاد الإغريق ؟ إن التخلص منى يوقف عجلة العمل ، ويؤدى إلى الخراب حتما » .

إن فى هذه العبارة الأخيرة تركيزاً وتوكيداً للمعنى الذى تستهدف هذه المسرحيات الكوميدية توكيده وترويجه ، فانقسام المجتمع إلى أغنياء وفقراء ، ضرورة لابد منها حتى تتوفر الأيدى العاملة الكافية لإدارة عجلة الإنتاج ؛ هذه الأيدى التى لا تعمل إلا بدافع الحاجة ، فإذا كان من حق كل فرد ، فى ظل الاشتراكية ، أن ينال من المال نصيباً مساوياً لنصيب الآخر انعدم الدافع إلى العمل ، ونضبت موارد الرزق لأن أغصان الشجر لا تحمل الفطائر ، ولأن الأنهار تتدفق ماء ، لا حساء ودهناً ولحماً .

بمثل هذا التفسير المضلل للاشتراكية تعبر هذه الأعمال الأدبية عن معتقدات الطبقة الغنية التى ترى أن من حقها هى وحدها أن تتمتع بالمال والسلطان دون أن

تؤدى عملاً ، وأن على الفقراء الاضطلاع بالعمل ليوفروا لها أسباب الرغد ، وأن هذا الوضع الجائر وضع طبيعىّ لا مفر من بقائه على ما هو عليه .

ومذهب الجبرية الذى عملت الملاحم والمسرحيات التراجيدية الإغريقية على تثبيته فى الأذهان يستهدف كذلك دعم الأوضاع القائمة ، وإحباط كل محاولة لتغييرها ؛ فهو يقضى على كل أمل فى الخلاص من الجور ما دام الناس مكبلين بمصائرهم المقدورة التى لا فكاك لهم منها . . . ولا نكران أن الشعوب كانت فى العصر القديم تدين أصلاً بالجبرية لقلة حيلتها ، وشعورها بالعجز عن تغيير الواقع ، ولكن الإغريق ، برغم تأثرهم هم أيضاً بتلك العقيدة ، توثبوا للثورة على الوضع الطبقى الجائر السائد فى بلادهم . فتوخت الأعمال الأدبية التى أشرنا إليها تثبيت تلك العقيدة بعد تخلخلها ، وإمعاناً منها فى بث اليأس المطبق فى نفوس المتوثبين للثورة صورت جهوداً جبارة ، بل خارقة ، بذلها أناس ذوو بأس وعزيمة للخلاص من المقدر لهم ، فإذا هذه الجهود تتبدد هباء ، وتبوء جميعها بالفشل . . .

ونعود فنقول إن تأثر الكاتب أو الفنان بمعتقدات القوى المعيقة للتطور ، وتأييده فى أعماله الأدبية أو الفنية لمثلها الفكرية ، واتجاهاتها المجافية للعدالة ، لا يقوم فى ذاته دليلاً على أنه ينصر الباطل على الحق عمداً ، أو أنه على وعى بالأثر الذى يحدثه إنتاجه ، فالكاتب أو الفنان يعجز عن ابتداع أعمال أصيلة إذا هو لم يعبر عما يؤمن به ، ولكنه ليس بمعصوم من الانخداع فى مثل فكرية براقة لا تبدو له حقيقتها .

وهناك التيار الأدبى الإغريقى الآخر الذى يقف أصحابه إلى جانب المغلوبين على أمرهم ، ويعبرون عن معتقداتهم وآمالهم ، وكان هناك شاعر يتصدر هذه الجماعة من الأدباء الأشراف ، ذلك هو الشاعر هسيود .

كان أبو هذا الشاعر تاجراً فى بادئ الأمر ، ثم أفلس واشتغل بالزراعة ، فنشأ ابنه هسيود بين الفلاحين ، وأحبهم وخصص جانباً كبيراً من شعره لتصوير حالهم ، وإسداء النصح لهم حتى يبرأوا من عيوبهم الخلقية ، ويستقيم سلوكهم ، وتصلح حالهم . ونقتطف هنا نبذة من كتاب « هسيود الشاعر اليونانى[1] » .

---

(١) صفحة ١٥٣ ، ١٥٤ من الكتاب المذكور ، ترجمة الأستاذ أمين سلامة .

« الفرق بين هوميروس وهسيود شاسع على الرغم من تشابه أسلوبهما فى نظم الشعر ، فالأول لم يكن يخاطب غير علية القوم ، ولا يتحدث إلا عن الملوك والقادة ، ولا يكترث بغيرهم من عامة الناس ؛ فى حين لم يهتم هسيود إلا بالطبقة الشعبية ، وكان لسان حالها دون شك . . . وعكست منظوماته الحقائق الواقعية دون رياء ، وصوّرت الحياة الاجتماعية الجديدة فى عصره[1] » .

ومن شعر هسيود قوله :

« يحثم اليوم عصر الحديد على الأرض
ويفرض إله الآلهة على بعض الناس العمل المتصل ،
و يتساقط الأشقياء المقهورون فريسة لسوء الطالع ،
ولكن إله الآلهة سيضع حدا لهذا العهد الظالم . . .
عهد تشيب فيه رؤوس الأطفال يوم يولدون . . . »

ومن شعره أيضاً :

« التمس المتعة والفخار فى مجال العمل
فهو الذى يحوطك بمحبة أهل الأرض والسماء .
أما الذى يجنح إلى الدعة والبطالة فهو كريه ممقوت .
الشرف لمن يعمل . . . والعار لمن يتجنب العمل . . . »

كان يرى العمل واجباً مفروضاً على الجميع ، ويرى كل من يتخلى عن هذا الواجب كريهاً ممقوتاً . . . ونحن لا ننكر أنه كان يحض على المنافسة الحرة فى سبيل تحقيق الثراء ، ويمجد العصامية ، ولسنا نرى فى ذلك تناقضاً مع مناصرته للطبقة الشعبية ، فالعصامية فى عصره كانت الوسيلة الفعالة للخلاص من العهد العبودىّ الذى احتقر فيه الأحرار العمل على أساس أنه مفروض على العبيد والفقراء وحدهم .

وصور الشاعر « تيبونيس » تكالب الناس فى مجتمعه على المال بقوله :

« ليس عجيباً أن يكرم الناس « إله المال » كل هذا التكريم ، فالشرير المعتدى يغدو فى صحبته شريفاً فاضلاً . . . إن أغلب الناس لا يعترفون إلا بفضيلة واحدة هى فضيلة الثراء . . . فالثراء قوة لا تضاهيها أية قوة أخرى فى العالم أجمع » .

---

(١) صفحة ١٥٣ ، ١٥٤ من الكتاب المذكور ، ترجمة الأستاذ أمين سلامة .

وصب الشاعر « أناكريون » جام غضبه على عبادة المال وأثرها فى نشر الرذائل وخنق الفضائل . ومما قاله فى هذا الصدد :

« ما فائدة غرس الصفات السامية فى النفوس ، صفات الشرف والنبل والحكمة ؟ . . . إنها جميعاً لا تلفت نظر عاطفة الحب ، فى حين يخطف المال بصر هذه العاطفة ! . . . اللعنة على من جعل النفوس تتحرق ظمأ إلى هذا المعدن الفاجر . . . هذا المعدن الذى ينكر الأبوة والأخوة والصداقة . وإذا كان المال قد أشاع النهب والسلب والحرب ، وغمر الأرض بالدم ، فإنه ارتكب ما هو أنكى من هذه الجرائم جميعاً . . . لقد قتل الحب . . . »

يبدو مما تقدم أثر المجتمع الإغريقى فى أدبه الذى اختلفت تياراته ، وعبر كل منها عن معتقدات إحدى الطبقات ، وعن آلامها أو أحلامها .

أما الشرق الأوسط ، أو الشرق العربى الذى كان مهبط الرسل والأنبياء فى الزمن الماضى ، فلم يمر بمراحل التطور الثلاث التى مرت بها أوربا فى انتقالها من العصر القديم إلى العصر الحديث ، إذ حالت ظروفه الجغرافية والاقتصادية دون ذلك ، واضطلعت الأديان بإعانة شعوبه الواقعة فى براثن الاستغلال على تغيير أوضاعها الاجتماعية الجائرة .

قطع بنو كنعان فى فلسطين القديمة شوطاً فى تطورهم الحضارىّ بعد أن أتقنوا الزراعة والصناعة ، وعرفوا النقد وسيلة للبيع والشراء فراجت عندهم التجارة ؛ واعترفوا بحق تملك العقار والرقاب ، وأبيح بينهم التنافس الحر على جمع المال وبسط النفوذ ، فأتيح للأغنياء أن يستغلوا الفقراء ؛ وحدث ما لابد أن يحدث فى مثل هذه الحالة — كما قلنا فيما سبق — وهو ازدياد الأغنياء غنى وسطوة ، وازدياد الفقراء فقراً وهواناً ؛ فاكتظت خزائن الأولين بالمال ، وخلت من فضلاته أكف الآخرين . وظهرت بوادر ثورة المحرومين على المتخمين ، وبدا أن الإرهاب المسلح لا يكفى وحده لإسكات الجياع ، وأن الإرهاب المعنوى قد يكون أبلغ أثراً ، فزعم المسيطرون على المال والرقاب أن إلههم « بَعَل » ، إله البركات والنعم ، هو الذى شاء أن يخصهم بنعمه وبركاته ، فمن يعترض على مشيئته يتعرض لعقابه الرهيب ، ومن يذعن لها يحظَ برضاه ؛ واضطلع كهنة بعل بترويج تلك المعتقدات ، وابتداع قصص

أسطورية تؤيدها وتثبتها فى الأذهان . . . وفى هذه الأثناء أقبل على أرض بنى كنعان موسى وقومه . . . وكانوا يعبدون الإله الأوحد ، رب الحق والعدل ، وناصر المظلوم والملهوف .

وقاومت المثل السماوية التى بشر بها موسى الكليم معتقدات « بعل » الموطدة لدولة الظلم والطغيان ، وانتشرت الدعوة إليها ، وآمنت بها الجموع المظلومة ، وكاد صرح الظلم أن يندك لولا أن اليهود مارسوا التجارة والإقراض بالربا ، وجمعوا المال واكتنزوه ، فارتدوا عن دينهم ، وكفروا بربهم الأعلى ، وآمنوا ببعل نصير الأغنياء ، وانضموا إلى مروجى الأضاليل ، مستعينين على ذلك بخدمهم وأتباعهم من المرتزقة المضلّلين ، وتأجج الصراع من جديد بين المثل المؤيدة للحق ، والمثل المروجة للباطل[1] .

وظهر الأنبياء واحداً بعد الآخر ، وأهابوا بأغنياء اليهود أن يرعووا ويتقوا الله فيما يرتكبون من آثام ، فهم لم يحصلوا على المال الذى اكتنزوه إلا بالربا والغش فى الموازين ، وأكل مال الضعيف واليتيم ، ونادوا بالويل والثبور ، وعظائم الأمور ، وتوعدوا الظلمة بنار جهنم الموقدة . . . وزخرت هذه الدعوات بالمعانى الأدبية التى أشعلت حماسة الجموع المغبونة ، فثارت ثورتها على مستغليها ، وزادت صرخات إسحق تلك الثورة اشتعالاً ، إذ كان لا يكف عن التهديد والوعيد بمثل هذا الأسلوب الأدبى الأخاذ : « الويل لأولئك الذين يفرضون القوانين الظالمة ، ويصدرون الأوامر الجائرة ليتمكنوا من رقاب الفقراء ، ويغتالوا حقوق المحرومين ، ويجعلوا من الأيّم واليتيم فريسة للأغنياء . . . وويل لأولئك الذين يضمون منزلاً لهم إلى منزل ، وأرضاً إلى أرض ليحتكروا خيرات البلاد بأسرها فلا يبقى فيها مكان للحرية » .

واستعمر الرومان فلسطين واستعبدوا فقراءها وأغنياءها على السواء ، واستنفوا مواردها دون أن يستطيع صدهم عن ذلك أحد . . . وكان أصحاب السلطان منهم يستعبدون حتى شعبهم نفسه فى بلادهم ، ويستنزفون أيضاً أمواله . وقد وصف الخطيب الرومانى المعروف « ثيبيريوس جراكوس » حال مواطنيه فقال فى إحدى

(١) يراجع كتاب التاريخ العام للاشتراكية ومعاركها فى العصر القديم لماكس بير ، ص ٣٣ وما بعدها .

خطبه : « الحيوانات التى تقبل على أرض الوطن تجد ، على الأقل ، حظائر تؤويها . أما أفراد هذا الشعب الذين يحاربون ويموتون فى سبيل الوطن فليس لهم فيه نصيب غير الهواء والضياء ، والذين يطالبونهم بسفك دمائهم فى ميدان القتال إنما يطالبونهم ، فى حقيقة الأمر ، بسفكها لحماية الأموال التى يملكها غيرهم . . . »

وكان الخطيب الشهير « شيشيرون » يقف هو و « جراكوس » على طرفى نقيض ، ويسخّر سحر بيانه فى سبيل إبقاء الأوضاع فى بلاده على ما هى عليه . وقد جاء فى كتابه « الواجبات » ما يلى :

« إن الذين يتوددون إلى الشعب ، ويريدون تجريد الأغنياء من أموالهم ، وإلغاء الديون وما إلى ذلك . . . إنهم يزعزعون الأسس التى تقوم عليها الدولة . . . »[1]

ولكن العدد الأكبر من الشعراء والفلاسفة اللاتين كانوا يستجيبون لدعوة الحق ، ويكرسون أقلامهم لتصوير حال الشعب التعسة ، ويفضحون المتسببين فيها ، ويستثيرون الحماسة للعمل على تغيير الأوضاع . فمن هؤلاء الشاعر « هوراس » الذى قال فى إحدى منظوماته : « أيها الرجل الشره ، إننا لا نراك إلا مغيراً على حقل جارك الضعيف ، تطالبه بما لا قبل له به ، ثم تطرده هو وزوجته الشقية فيهيمان على وجهيهما وهما لا يملكان إلا إيمانهما بالحق ، وأطفالهما أنصاف العراة » .. ومنهم الشاعر « سنيكا » ، وهو أبو الفيلسوف المعروف بهذا الاسم ، وقد قال : « أنتم أيها الأغنياء تملكون الأرض جميعها ، ويبنى كل منكم فى المدينة وضواحيها قصوراً تمتد فى كل اتجاه حتى ينعم فى بعضها بحرارة الصيف شتاء ، وفى بعضها الآخر ببرودة الشتاء صيفاً ، ولا يقاسى تقلبات الجو فى مختلف الفصول ! . . فى حين لا يبدو فى الريف إلا أفراد مبعثرون فى المناطق التى كانت آهلة بشعب كامل . . . وأصبح لمديريكم سلطان يتضاءل إلى جانبه سلطان الملوك . . . »

ولكن قبل أن تحدث هذه الصرخات وأمثالها أثرها فى النفوس ، وتشعل نار الثورة على المتحكمين فى رقاب الشعب الرومانى ، أولئك الأجلاف القساة الذين لم تعرف قلوبهم شفقة ولا رحمة ، نزلت فى فلسطين رسالة سماوية على عيسى ابن مريم عباراتها المنثورة أرق من الشعر ، ولكن رقتها كانت أفتك من أسلحة

---

(١) ص ١٥٣ من الكتاب المذكور .

الرومان . لقد بشرت بمثل إنسانية لانت لها حتى القلوب القاسية . . . بشرت بالمحبة والغفران والسلام ، وكانت وسيلة من وسائل انتقال البشرية إلى مرحلة أسمى حضارة من سابقتها .

ولم تمر على هذه الرسالة ستة قرون حتى نزلت آخر رسالة سماوية على خاتم المرسلين ، وأضاءت للبشرية طريق التقدم إلى أسمى الغايات .

كان العرب لا يزالون منقسمين إلى قبائل رحّل عندما اتسعت مدينة مكة ، وأخذ مجتمعها يخطو خطواته الأولى فى انتقاله من النظام القبلى إلى النظام العبودى ؛ وتمكن سادتها وكهنتها من بسط سلطانهم على الجزيرة بعد أن جمعوا آلهة مختلف القبائل فى الكعبة ، وأملوا على أمة العرب إرادتهم بحسبانها إرادة تلك الأصنام ، وأخافوا بها كل مجترئ على العصيان ، وهددوه بانتقامها ، وطغوا أشد الطغيان دون أن يردعهم رادع ، واستأثروا بالغنى والجاه دون أن يعترض عليهم معترض . وخشى حتى الشعراء والخطباء أن ينبسوا بكلمة ينتقدون بها ذلك الحكم الإرهابىّ ، ولم يبد للناس بصيص من أمل فى الخلاص من تلك الحال .

واقتضت تلك الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية الجائرة ، المستندة إلى معتقدات وثنية باطلة ، تنزيل معتقدات إنسانية قويمة تبدد الأضاليل ، وتقضى على دولة الظلم ، فاختير محمد رسولاً مبشراً بالدين الحنيف فى هذه البقعة من الأرض بالذات ، وفى هذه الآونة التى بلغ فيها الطغيان والكفر أشده حتى يمحو الضلال بالهدى ، ويقضى على دولة الظلم بالحق ، ويحرر الشعب من قبضة مضلّليه .

ونزلت آيات القرآن الكريم مصوغة فى أسلوب فنى ليس له نظير ، وتضمنت من القصص والمعانى الأدبية ما لم يرق أدب إلى مستواها ، فخلبت ألباب من استمعوا إليها ، وبددت معتقداتهم الباطلة ، واستلت من قلوبهم المخاوف والأوهام ، وهدتهم إلى الإيمان بالحق ، وغرست فى نفوسهم أسمى الفضائل ، وهيأت لهم سبيل الخلاص من المتحكمين فى مصائرهم ، ونفثت فيهم القوة بسحر بيانها ، وبليغ أثرها ، ومكنتهم من فلّ سيوف المشركين ، ودكّ دولة الظلم ، وتغيير الأوضاع الجائرة ؛ وانبعثت من القبائل المتفرقة أمة عربية موحدة ، بث فيها الدين الجديد روحاً مكنها من قهر أقوى الدول المتربصة لها ، ومن تأسيس حضارة لم تعرف البشرية أسمى منها مثلاً فكرية ، وقيماً إنسانية ... والتاريخ يشهد ، على الرغم من إنكار المنكرين بأن

تلك الحضارة الفريدة فى نوعها كانت الأساس الذى قامت عليه الحضارة العالمية الحديثة . . .

طرأ على خصائص الأدب العربى وقتذاك تغير شبيه بالتغير الذى طرأ على خصال الناس ، فتهذبت عبارته ، ورقت حاشيته مثل ما تهذب الناس ورقت حاشيتهم . وبدأ يعبر عن شمائل المجتمع الجديد ، فلم يقتصر على الإشادة بالحسب والنسب ، والتفاخر بقوة الشكيمة ، وشدة المراس ، والبطش بأفرس الفرسان ، وإرهاب أشجع الشجعان ، بل غلب عليه التنويه بالتقوى ، والترفع عن الدنايا ، والتمسك بعفة اليد واللسان ، وبالتواضع والحياء والرقة والدماثة ولين العريكة والتسامح . . . ولم يكن الناس من جميع الأجناس يعرفون الحب الطاهر قبل الإسلام ؛ فها هوذا الشعر الجاهلى ، إلا ما ندر ، لم يصور لنا الحب إلا لهفة على تملك المرأة والاستمتاع الحسى بها .

ولكن ذوى المشاعر الرقيقة من العرب الذين طهرت العقيدة الجديدة نفوسهم ، نزهوا المرأة عن أن تكون مجرد وسيلة لمتعة رخيصة ، فخفقت لها قلوبهم إعجاباً بريئاً بما تتميز به من جمال وفتنة ، وتقديراً عميقاً لما تتحلى به من عفة وفضيلة ، وعرفوا عندئذ متعة الحب الروحية التى لا تعدلها متعة . . . وطلع شعراء بنى عذرة ، لأول مرة فى التاريخ ، بقصائد عبروا بها عن حبهم العذرى ، فكان هذا اللون الجديد من الشعر الذى سرعان ما تخطى حدود نجد ، وذاع فى أرجاء البلاد العربية ، ونسج الشعراء على منواله ، وانتقل مع العرب إلى أوربا . . . كان ، كما قال بعض نقاد الغرب الشرفاء ، أهم عامل على تهذيب النفوس ، وتهيئة السبيل لانتقال البشرية من العصر الوسيط إلى العصر الحديث ، وسترد فى ثنايا هذا الكتاب استشهادات كثيرة بما قاله أولئك النقاد فى هذا الصدد .

وسبق أن تحدثنا عن امتداد الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً ، وما ترتب على ذلك من ارتفاع المستوى الاقتصادى للمجتمع العربى ، وانقسام ذلك المجتمع إلى طبقات اتسعت الفوارق بينها باطراد ، وأثر ذلك فى أدبه الذى تنوعت تياراته ، فراح بعضها يعكس نشاط الطبقة ذات المال والسلطان ، ويصور ما تعقده من مجالس الشراب والرقص والغناء ، ويعبر عن معتقداتها وميولها وأهوائها ، وراح بعضها الآخر يصور ما يجرى فى الحانات والمواخير من سكر وعربدة ومجون ، وعبر تيار

ثالث عن سخط الجموع الشعبية على الانحلال الذى أصاب البلاد ، وهرب أصحاب التيار الرابع من الواقع ولاذوا بالزهد والتصوف .

نستخلص من التطبيقات المتقدمة أنه ليس بالأمر المحتوم أن يمر كل مجتمع على التعاقب ، بالمراحل التطورية الثلاث المشار إليها ، وهى مرحلة الإقطاع فمرحلة الرأسمالية فالاشتراكية ، إذ قد تحول ظروف دون تحقق ذلك ، ولكن الأمر المحتوم هو أن كل مجتمع يتطور على الدوام بدافع أوضاعه الاقتصادية التى تتسبب دائماً فى ظهور قوى سياسية جديدة تكافح فى سبيل تغييرها والخلاص من القوى المستبدة التى تحاول إيقاف عجلة التطور . . . وعلى ذلك تتغير موازين القوى دون انقطاع ... والقوى التحررية الجديدة تعتمد دائماً على أسلحة معنوية تحارب بها معنويات خصومها ، وقد تسعفها عقيدة سماوية تناصرها ، وقد تهب لنجدتها تيارات أدبية تبلور قيمها الفكرية بصياغتها فى قوالب أدبية فنية تخلب الألباب ، وتلهب النفوس ، فيكون لها الأثر الفعال فى تغيير حال بحال .

بيد أن هناك ظروفاً خارجية قد تلعب دوراً حاسماً فى تطور المجتمع ، مثل غزوة خارجية تدهمه فتدك نظامه من أساسه ، وتقضى على قواه السياسية جميعاً ، وتعود بعجلة تطوره إلى وراء . . . أو غزوات ناجحة تقوم بها جيوشه فيظفر بنصيب من خيرات البلاد المغزوة ، وتزدهر عندئذ حاله الاقتصادية ، ويساعد ذلك على سرعة نمو قوى اجتماعية وسياسية جديدة تطالع الناس بأدب وفن جديدين .

أما الظن بأن هناك أدباء وفنانين لا يعبرون بأعمالهم الأدبية والفنية إلا عن ذاتهم ، ولا تنبع أفكارهم ومعانيهم إلا من قرائحهم وأحاسيسهم ، فهو ظن لا يصح إلا إذا تصورنا أن أولئك الأدباء والفنانين استطاعوا أن يعيشوا منذ طفولتهم بمعزل عن الناس جميعاً ، وأنهم لم يتزودوا من مجتمعهم بأية معارف وأفكار ومعتقدات ، ولم يتأثروا منه بأية ميول ، ولم ينحازوا إلى أى تيار من تياراته العقائدية والعاطفية . . . وما دام ذلك غير ممكن الحدوث ، فليس بممكن كذلك أن يكون هناك أدب لا يعبر عن الاتجاهات الفكرية والعاطفية لفئة من الناس ، ولطبقة اجتماعية معينة ، ولا يؤيد الأهداف التى تتوخاها . . . ولو أمكن وجود مثل ذلك الأدب الذى لا يعبر إلا عن ذات مبتدعه ، فهو محكوم عليه بالموات ، لأن الأدب — ككل إنتاج — لا يحيى ويروج إلا إذا وافق ميول طبقة اجتماعية تعمل على رواجه .

وقد فطن بعض مؤرخى الأدب العربى أخيراً إلى ما للمجتمع وتطوره من أثر فى اتجاهات أدبه وتطورها . ومما قيل فى ذلك : « لابد للباحث من إلقاء نظرة على التطور السياسىّ والتغير فى القوى الاجتماعية الحاكمة ، والطبقات الشعبية ، والعناصر الثقافية ؛ ويكون لزاماً عليه أن يعرف أثر ذلك فى الأخلاق والفكر والأدب[١] » .

وفى أيام تشوسر حدث فى إنجلترا نفس ما يحدث فى أى بلد تهيأ له نفس ظروفها وقتذاك . . . حدث فيها تحول اجتماعى كبير على أثر أخذها بأسباب التقدم الحضارىّ ، ونهوض اقتصادها تبعاً لذلك . فقد نمت مدنها بعد أن اتسع فيها نطاق الصناعة ، ونزحت إليها من الأقاليم القريبة والبعيدة أفواج بعد أفواج من الساعين وراء الأعمال المربحة المتوفرة فيها ، وازداد ازدياداً مطرداً عدد من نجحوا فى تلك الأعمال ، وجنوا منها الربح الوفير ؛ ولم تلبث أن تكونت منهم طبقة وسطى متواصلة النماء ، فتاقت إلى رفع مستواها الثقافى ، بعد ارتفاع مستواها المادىّ ، حتى تتشبه بالطبقة الراقية المهذبة ، ورأت فى التزود من الأدب وسيلتها إلى بلوغ تلك الغاية ، فأقبلت عليه تقرأ ما تصل إليه أيديها من كتبه ؛ وتحضر ما يعقده له هواته من اجتماعات تلقى فيها أحدث الأعمال الأدبية . بل كان أفرادها الذين حققوا الثروات الطائلة يقيمون فى بيوتهم الفخمة حفلات شبيهة بحفلات الأمراء والنبلاء ، يؤمها الشعراء والقصاصون والممثلون والمغنون ، ويدلى كل فريق منهم بمبتدعاته ، فيستمتع الحاضرون بسماع القصائد والمنظومات القصصية ، وبمشاهدة المسرحيات ، ويفيدون إلى جانب المتعة سمواً فى الإدراكين الحسى والعقلى ، وفى الذوق الفنىّ . . . وتهيأ بين أوساط هذه الطبقة مجال ملائم لازدهار نوع جديد من الأدب يهتم بتصوير واقع مجتمعه ، وتحليل أحاسيس النماذج المختلفة من أفراده ، وصياغة خواطرها وتطلعاتها فى صيغ فنية تستهدف صدق التعبير عن الحقائق الواقعية . . . بعد أن كان الأدب السابق على ذلك العهد أكثر اهتماماً بتصوير مغامرات خيالية أسطورية منسوبة إلى الأبطال من الفرسان[٢] .

---

(١) كتاب « تاريخ الأدب العربى » لنديم عدى ، ص ٢٠ .

(٢) يراجع بحث « علاقة الوضع الاجتماعى بالأدب الإنجليزى » صفحة ٩٢ و ٩٣ من كتاب « عصر تشوسر » المشتمل على بحوث مختلفة قام بوريس فورد بجمعها ونشرها .

وفى هذه التربة الصالحة لازدهار الأدب تفتحت موهبة تشوسر ، وتفتقت عن منظوماته الأصيلة التى استحق بها أن يلقب عن جدارة بأبى الأدب الإنجليزى .

٣ ـ أثر الفرد فى تطور المجتمع

يحتاج شرح النصيب الذى يضطلع به الفرد فى تطوير مجتمعه إلى إلقاء مزيد من الضوء على حركة التطور العامة .

ونعود إلى الفلسفة الإغريقية التأملية فنقول إنها قسمت الكائنات بالنسبة للحركة إلى ثلاثة أنواع : جامد ، ومتحرك ، ثم متحرك ومحرك معاً ؛ فالجماد الساكن جامد ، والنبات متحرك ، والحيوان متحرك ومحرك ، وقد يكون الجماد متحركاً ومحركاً كالمطر أو السيل . . .

أما فى العصر الحديث فقد أدركت الفلسفة المهتدية بكشوف العلم المزدهر أن كل ما فى الوجود من ماديات ومعنويات لا يثبت لحظة واحدة على حال ، بل يتحرك ويحرك غيره دون انقطاع ، حتى الجماد الذى يبدو ساكناً تضطرب ذراته وتتصادم ، و يحرك بعضها بعضاً ، فيتحرك بدوره ويحرك ما حوله ، ويتحول من طور إلى طور فى زمن قد يطول أو يقصر ، ونضرب لذلك مثلاً بالخشب الدفين الذى يتحول فى باطن الأرض إلى فحم ، ثم يتحول الفحم إلى ماس .

ونضيف نحن هنا أن الفرد ، طبقاً لهذه الحقيقة العلمية ، متحرك ومحرك ، ومتطور ومطور ، فهو يتحرك مع حركة مجتمعه ويحركه فى نفس الوقت ، ويتطور به ويطوره . . .

وإذا كان قد غاب عن أرسطو أن كل شىء فى الوجود متحرك ، فقد فطن إلى أن الأشياء جميعها تتطور ، وأن التطور قد يجنح إلى الأصدق والأكمل والأعقل أو العكس .

ويرى أرسطو أن الشىء المحسوس المتطور يحتفظ بمعدنه على الرغم من تطوره ؛ وهو يقسّم الأشياء المحسوسة إلى مادة وصورة ، فالمادة التى تتطور فتبدو فى صورة مفهومة مقبولة تتطور إلى الأكمل ، فإذا تطرق إليها الفساد تنكص إلى الوراء فى

تطورها وتشوه ثم يدركها العدم ، أما معدنها فيظل هو بعينه دون تبدل .

ولم يجد بعد ذلك جديد يذكر فى عالم الفلسفة الأوربية حتى طلع فلاسفة القرن السابع عشر بمذهبهم المادىّ ، زاعمين أن الوجود باق على حاله ، وصوره الظاهرة هى وحدها التى تتبدل ، أى أنها تتلاحق على وجه البسيطة ، ويخلف بعضها بعضاً ، ولكن اللاحق يجىء على غرار السابق دون أن يتغير شكلاً ومضموناً . وإذا تصادمت الأضداد ، وتغلب بعضها على بعض وطغى عليه ، فإن التوازن لا يلبث أن يعود بينها إلى سيرته الأولى ؛ فكل شىء يخضع لقوانين ثابتة ؛ ويدور فى فلك مرسوم لا يجد فيه جديد ، فكل ما ينبت فيه مكرر ، وكل ما يحدث فيه معاد . . . وانتهوا من ذلك إلى إنكار الزمن كما أنكره بعض الفلاسفة القدماء ، فلا زمن ما دام كل ما فى الوجود ثابت على ما هو عليه لا يتناوله تطور ، ولا يطرأ عليه تغير .

ورحب أصحاب المال والسلطان وقتذاك بهذا المذهب الفلسفى الذى يبشرهم بدوام الحال على نحو ما يشتهون حتى طلع هيجل بنظريته الفلسفية التى كذّبت تلك البشرى ، وحطمت ما ترتب عليها من آمال ، إذ أقامت الحجج الدامغة على أن كل ما فى الوجود يتطور ويتغير بفعل الصراع بين النقائض ، ويتولد من القديم جديد لا يختلف عنه من حيث الجدة فحسب ، ولكنه يختلف عنه شكلاً ومضموناً . . إن الزمن يمر فيجىء على الدوام بالجديد المتكاثر ، ويجىء للجديد المتكاثر بنواميس جديدة ، وتستجد تبعاً لذلك أنظمة ومعتقدات وقواعد تزداد على التوالى تركيباً وتعقيداً .

إن التغير لا يطرأ على الصورة وحدها — كما قال أرسطو — بفعل تطور مادتها صوب الكمال أو صوب النقصان . . . ولا يطرأ على الكائنات الحية فحسب بفعل تنازع البقاء بين أفرادها ، كما قال داروين ، ولكنه يطرأ على كل ما يشتمل عليه الوجود من ماديات ومعنويات ، ويشمل فيما يشمل مجتمعاته البشرية التى يتطور اقتصادها كما قلنا ، فتظهر طبقة جديدة نتيجة لذلك التطور ، ويقوم بينها وبين ذوى المال والسلطان صراع طبقى ينتهى بتبدل القائمين على الحكم وتغير نظامه ، وتستجد أفكار وقيم ورغبات وأهداف لا تعدم مذاهب أدبية جديدة تعكسها فى صيغ فنية على النحو الذى سبق شرحه .

وإذا كان ما تقدم محتوماً ، ومحكوماً بقانون طبيعيّ لا فكاك منه ، فما هو الدور الذى يلعبه الناس ، أفراداً وجماعات ، فى حركة تطور مجتمعهم وتغيره ؟

قد يخطر على البال ، عند الإجابة على السؤال المذكور ، أن الناس لا يقومون بدور فعال فى هذا المجال . . . أو أنهم يقومون بدور مقدور يمليه عليهم قانون التطور دون أن تكون لهم إرادة فيه ، أو أن يكون لعزائمهم ومواهبهم أثر — وهذا الرأى الأخير هو ما يقول به أصحاب المذهب المادىّ الآلى فى الفلسفة — ولكن الواقع يجافى هذا الرأى أو ذاك ، فالجموع العاملة فى الحقل الزراعىّ والصناعىّ هى التى توفر الإنتاج لمجتمعها فيرتفع مستواه الاقتصادىّ ، ومن ثم يرتفع مستواه الفكرى . . وعلى قدر ما تبذله تلك الجموع من جهد فى عملها ، وعلى قدر ما تكتسب من خبرة وفطنة ، وما يهتدى إليه المتميزون من كشوف ومخترعات ، يزداد هذان المستويان ارتفاعاً ، فإذا وصلا إلى حد معين استيقظ شعور القوى الشعبية بما تعانيه من غبن ، فتضيق بوضعها الاجتماعى غير العادل ، وتحاول تحسينه فتشتبك فى صراع مع الطبقة المستبدة بها . . . وعلى قدر استبسالها فى ذلك الصراع يقترب موعد انتصارها على خصومها . ويوم يحين ذلك الموعد ، وتتمكن من القبض على زمام الحكم تستبدل لمجتمعها نظاماً بنظام ، وتنتقل به إلى مرحلة تطورية جديدة . . . فهى إذن القوة المحركة لعجلة التطور والتغير ، وهى تستطيع — بمعونة الموهوبين من الأفراد الذين يتولون إرشادها فى ميدان الإنتاج ، وإمدادها بالمخترعات العلمية ، وقيادتها فى المعترك السياسىّ ، وتوعيتها فى ميدان الأدب والفن — أن تزيد حركة التطور والتغير سرعة ، وإن كانت لا تستطيع ، هى والذين يتولون قيادتها ، تغيير قانون هذه الحركة .

وكل من يلقى نظرة إلى ما يحدث اليوم فى شتى ميادين النشاط الإنسانىّ تطالعه الشواهد الواقعية على مدى تدخل الإنسان فى عمل الطبيعة . فهو لم يعد ينتظر أن تتطور منتجاتها من تلقاء نفسها ، ويتكاثر الأفضل منها — طبقاً لقانون التطور — ويسد حاجاته ، ولكنه أصبح يعمل على تطويرها بنفسه بعد أن ألم بأسباب تطورها ، واستطاع أن يضطلع ، بدل الطبيعة ، بتوفير تلك الأسباب ، ويحقق فى مدد قصيرة من الزمن تقدماً فى هذا المضمار لا تحققه وسائل التطور الطبيعية فى آماد طويلة .

كان تطور النبات والحيوان يخضع بين أحضان الطبيعة . قبل توصل الإنسان إلى التدخل فيه . لقانون الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح . ويحدث فى بطء شديد إلى حد أن ظهور سلالات نباتية أو حيوانية جديدة كان يستغرق فى بعض الأحيان عشرات الآلاف أو مئات الآلاف من السنين .

كان يحدث فى عالم النبات — قبل أن تمتد إليه يد الإنسان — أن تنبثق لأسباب معينة . وفى ظروف معينة . نباتة أمتن من مثيلاتها عوداً . وأرقى نوعاً . وأضخم حجماً . وأكبر ثماراً . وأوفر إثماراً ؛ وطبقاً لقانون الانتخاب الطبيعى وبقاء الأصلح . تمتص هذه النباتة من الأرض نصيب جاراتها من العناصر الغذائية . وتنشر ظلالها فتمنع عنها أشعة الشمس . وتزداد قوة فى حين تزداد النباتات المجاورة ضعفاً . وتلقى بذورها بعد نضجها فتتولد منها نباتات فى مثل تميزها . وتتكاثر بذورها . وتمتد فى الأرض . وتكتسح النبات الأضعف وتحل محلها . ثم يتولد من بينها نوع أقوى منها فيفعل بها ما فعلت بغيرها . . . ولدينا هنا فى مصر الدليل المادى على تطور النبات وتغير نوعه عبر التاريخ ، فقد وجد علماء الآثار فى بعض قبور الفراعنة قمحاً يختلف كل الاختلاف فى نوعه عن أنواع القمح المعروفة فى وقتنا الحاضر .

والإنسان لا يترك اليوم هذه العملية تحدث من تلقاء نفسها بين أحضان الطبيعة . ولا ينتظر آلاف السنين حتى تتمخض عن أنواع جديدة من النبات . ولكنه يبحث بنفسه بين النبات عن النباتة المتميزة عن غيرها . ويستنبت بذورها . وبذور سلالتها . ويتمكن بهذا الانتخاب والإكثار . من تعميم زراعتها ، فتتم على يديه عملية تطور النبات فى مدة وجيزة لا تقاس بالحقب الطويلة التى كانت تتم خلالها على نحو طبيعىّ دون تدخل الإنسان .

وقد استطاع علماء الزراعة فى بعض البلاد أن يستنبتوا بأنفسهم أصنافاً ممتازة من المحصولات مطبقين طريقة التهجين على ضوء علم الوراثة .

وهذا الذى يحدث فى عالم الزراعة يحدث نظيره فى عالم الحيوان . حيث يعمل الإنسان بنفسه على توليد السلالات الممتازة من الحيوانات . وعلى الإكثار منها دون انتظار حدوث ذلك عن طريق التطور الطبيعىّ البالغ البطء .

وهو يوفر من الدجاج المنتخب ، عن طريق عملية التفريخ الصناعى ، ما لا يتوفر نظيره ، نوعاً وعدداً ، عن طريق التطور الطبيعىّ إلا فى مدة تزيد أضعافاً ، وأضعاف أضعاف ، عن المدة التى تستغرقها هذه العملية .

وفى ميدان الصناعة يستطيع الإنسان اليوم أن يستخرج فى أفران ضخمة ، ماساً من الفحم ، فيحقق فى أيام ما لا يحققه التطور الطبيعىّ إلا فى مئات الآلاف من السنين . وهو يستطيع كذلك أن يستنزل الأمطار بالطرق الصناعية بدلاً من انتظار هطولها بالطرق الطبيعية المتوانية .

وهناك عملية مزج العناصر الطبيعية بعضها ببعض ، واستخراج أنواع جديدة منها عن طريق هذا المزج ، لم يكن يتاح تولدها فى جوف الأرض إلا بمرور أزمان وأزمان .

ويكفى ما ذكرناه لإثبات قدرة الفرد المتميز على زيادة تطور نتاج الطبيعة سرعة . ولكن هل هو قادر على تحقيق مثل هذه السرعة لتطور المجتمع ؟ قد يقال إنه يحققها عن طريق ذلك الدور الذى يلعبه فى الميدان الاقتصادىّ نظراً إلى أثر الاقتصاد فى التطور الاجتماعىّ والسياسىّ ، ولكنه يحققها فى هذه الحالة عن طريق غير مباشر ، فهل يستطيع تحقيقها عن طريق مباشر ؟

إن المفكر والكاتب والفنان يستطيعون أن يلعبوا فى الميدان الاجتماعىّ والسياسىّ نفس الدور الذى يلعبه العالم فى الميدان الصناعىّ والزراعىّ . أى أنهم يستطيعون زيادة تطور مجتمعهم سرعة فى حالة توفر الظروف المؤاتية ، ولكن ليس فى وسعهم أن يتوسلوا إلى ذلك بقانون غير قانون التطور ، أو بأسباب غير أسبابه .

ولابد أن نؤكد هنا حقيقة تستحق أن نكررها ثانية وهى أن الأفراد المتميزين الذين يؤثرون فى حركة تطور مجتمعهم هم جزء منه يتأثرون به قبل أن يؤثروا فيه . والخطأ الذى يقع فيه بعض المؤرخين يرجع إلى غفلتهم عن تلك الصلة ، وحسبانهم أن أولئك المتميزين يبتدعون الأفكار ابتداعاً خارج نطاق مجتمعهم ، ويفرضونها عليه فرضاً .

فالمفكر الموهوب وليد مجتمعه ، ولا يعدو أن يكون فرداً متميزاً من أفراده ، وهو لا يستطيع أن يحدث أثراً يذكر فى حركة التطور إذا لم تكن هناك قوى متضاربة

المصالح تتصارع داخل نطاق مجتمعه ، دون أن يكون له دخل فى وجودها ونشوب الصراع بينها ، وإذا هو لم يتأثر بالاتجاهات الفكرية لإحدى تلك القوى ، و يؤمن بالحق الذى تناضل من أجله ؛ أو لم تضعه مواهبه على رأس القوة التى انحاز إليها ، وتمكنه من تولى قيادتها . . . فى حالة توفر هذه الظروف يستطيع أن يؤثر فى حركة التطور بمقدارما يتحلى به من نفاذ الفكر ، وثبات الجنان ، وحسن القيادة ، واتساع الحيلة ؛ فإذا كان يتولى قيادة الطبقة المتضائلة السلطان ، الآيلة إلى الزوال ، استطاع أن يؤجل انهيارها إلى حين فيخفف من سرعة التطور ؛ أما إذا كان يتولى قيادة الطبقة النامية ، المتزايدة السلطان ، استطاع أن يقرب ساعة انتصارها فيزيد التطور سرعة . . . بيد أن مدى نجاحه فى كلتا الحالتين يتوقف ، كما قلنا ، على مستوى المواهب التى يتمتع بها .

وآن لنا ، بعد التمهيد المتقدم ، أن نتحدث عن الدور الذى يلعبه الكاتب والشاعر فى حركة تطور مجتمعهما ، وهو الدور الأقرب صلة بموضوع هذا الكتاب .

يطلع على المجتمع فجر نهضة أدبية حقة يوم يفيق من غفوة الجهل ، أو ، بعبارة أدق ، يوم تفيق منها طبقة جديدة تنمو بين ظهرانيه ، وتحقق بالعمل شيئاً من النجاح ، وتكتسب قدراً من الخبرة والفطنة ، فتشعر بكيانها ، وبالحاجة إلى التخلص من تخلفها ، فتتوسل إلى تهذيب طباعها بالتزود من المقتطفات الأدبية ، وتأمل أيضاً ، من وراء ما تقدم ، أن تزداد مكانتها رفعة بين الناس ، ويضيق الفارق بينها وبين الطبقة ذات الجاه والسلطان .

والكاتب أو الشاعر يستيقظ أيضاً على ضوء هذا الفجر ، وتتفتح موهبته ، وتتفتق عن آيات فنية يترقبها جمهور متعطش إليها ، ويتلقفها ليروى غليله منها .

وهو بحكم علاقته بذلك الجمهور ، وعلى قدر اهتمامه به ، ومشاركته العاطفية له فى نزعاته وتطلعاته ، يدرك ببصيرة الأديب النافذة كل خطرة تخطر ببال من يخالطهم من أفراده ، ويحس كل خفقة تخفق بين جوانحهم ؛ فإذا شعر بالرغبة فى التعبير شعراً أو نثراً عن دخيلة نفسه ، وشواغل باله ، وجد فيما انطبع بذهنه من خواطر أولئك الأفراد ، وما انعكس بنفسه من أحاسيسهم ، أهم ذخيرة ينسج منها منظومه ومنثوره ؛ وهو ينجح فى ابتداعهما ، ويجتذب بهما الجمهور ، على قدر

نجاحه فى تصوير تلك النماذج البشرية التى يخالطها . والتعبير بصيغ فنية مبتكرة عن مختلف اتجاهاتها الفكرية ، وتحليل مكنون ميولها وتطلعاتها . وكلما اشتد الاهتمام بمثل هذه الأعمال الأدبية ، والإقبال عليها ، ازدادت موهبة مبتدعها تفتقاً ، وازداد نبعها تدفقاً ، ومن ثم يطرد نجاحه ، ويتوالى سمو قدره ، ويشحذ ذلك موهبته شحذاً جديداً ، فتصبح أقدر على الابتكار وهكذا دواليك .

والكاتب أو الشاعر الموهوب الذى يستطيع أن يشرح للناس كنه أفكارهم وميولهم ، ويبصرهم بحقيقة حالهم حتى لكأنهم يرون أنفسهم فى مرآة — على حد تعبير بيابنسكى — لا يزيدهم معرفة بأنفسهم وبالحياة فحسب ، ولكنه يرتفع أيضاً بمستوى إدراكهم الحسى إلى جانب ارتفاعه بمستوى إدراكهم العقلى ، فهو يرقق عواطفهم بما يصوره من مختلف الأحاسيس . . . فإذا صوّر لهم الشر مثلاً ، نفّرهم بطبيعة الحال من صورته البشعة ، وإذا صور الخير حبّب إليهم صورته النبيلة . . . وهو يسمو كذلك بذوقهم حين يستطيع التعبير عن مفاهيمهم وخواجلهم بصور فنية أفتن جمالاً . . . وهو فوق ذلك يفسح المجال لتقدم جديد فى ميادين الأدب والفكر والذوق جميعاً بقدر تمكنه من تطوير اللغة الفصحى وإثرائها وتطويعها للتعبير عن معانيه المبتكرة .

ومن ثم يكون أثر الأديب واضحاً فى زيادة تطور مجتمعه سرعة حتى منذ اليوم الذى يخطو فيه ذلك المجتمع خطواته الأولى فى طريق التقدم الحضارى .

وقد حدث أن طلع مثل هذا الفجر على الأمة العربية يوم أشرق الإسلام ، وغمرها ، كما قلنا ، بنوره ، ومكنها من تحقيق نهضة حضارية كبرى تعاون معها الازدهار المادى ، والإنتاج الأدبى ، والسمو الروحى ، على الارتفاع بها إلى ذروة ما زالت تستثير دهشة الباحثين إلى اليوم .

نما الأدب العربى وقتذاك ، وتعددت فنونه . وتنوعت معانيه وأغراضه على أثر ارتفاع المستوى الاقتصادى ، ونمو طبقة وسطى شعرت بالحاجة إلى تنمية ثقافتها . فأقبلت على الأدب تتزود منه ، وشغفت على الأخص بالشعر الذى عنى بالتعبير عن مختلف اتجاهاتها الفكرية والعاطفية . فصادف هوى فى أفئدة أفرادها . وزادهم إقبالاً عليه ، ولعب عندئذ دوره فى تنشيط نهضة الأمة العربية برفع مستوى تفكيرها وشعورها وذوقها ، وبتطوير اللغة العربية ، وزيادة قدرتها على تصوير أدق المشاعر ،

والتعبير عن أعمق الأفكار . وتحويلها بذلك إلى لغة من أفصح لغات العالم .

وقد أشار نديم عدى إلى ذلك بقوله :

« ويبتعد الأدب العربى عن الجو البدوى الذى نشأ فيه . فتطرأ عليه تغيرات مختلفة فى الألفاظ والأفكار والأخيلة والعواطف والمواضيع ؛ فيهجر الأدباء الألفاظ البدوية الخشنة . ويغرمون بالألفاظ اللينة السهلة ، ويبتعدون عن البحور الطويلة ، ويألفون القصيرة . وينتقون القوافى الموسيقية الحلوة الوقع . وقد مثل ذلك فى الأفكار ، فهى أفكار الحضر ؛ وفى أناقة التعبير والتشبيه والاستعارة ، وفى مختلف الموضوعات الأدبية وفنون القول [١] » .

ولا تخفى العلاقة الوثيقة . والأثر المتبادل بين نهضة اللغة فى بلد من البلاد . وبين نهضته الأدبية بخاصة . والحضارية بعامة .

وفى عصر تشوسر . مثلاً . طلع على إنجلترا فجر نهضة حضارية . فإن استفحال نفوذ الإقطاعيين النورمانديين الذين كانوا يمتلكون الضياع الشاسعة وقتذاك . ويشددون قبضتهم على رقاب عامة الشعب الإنجليزى . ويلجأون إلى شتى الوسائل لإذلاله وإبقائه خاضعاً لنفوذهم ، لم يحل قط دون نمو التجارة والصناعة اللتين تمخضتا عن ظهور الطبقة الوسطى التى تحدثنا عنها فى آخر الجزء الثانى من هذا الفصل . وقلنا إنها كانت العامل الأكبر على تنشيط الأدب الذى عمل بدوره على رفع مستواها الفكرى والحسى . . . وما زال هذا التفاعل بينهما يحدث أثره حتى تهيأ الجو الملائم لتحقق النهضة الأدبية التى تألق تشوسر فى سمائها . ولعب الدور الأكبر فى تطويرها والسمو بها ، وزاد بذلك تطور الشعب الإنجليزى سرعة ، وقرّب بذلك الأمد الذى استطاع الشعب الإنجليزى خلاله أن يتبوأ مكانته المرموقة بين الأمم المتحضرة .

بيد أن الأديب الموهوب قد يصبح أقدر على تأخير تطور مجتمعه أو التعجيل به فى حالة بلوغ الطبقة النامية فى بلده حداً من الوعى والقدرة يمكّنها من الاشتباك فى نضال مشتعل الأوار مع الطبقة المتحكمة فيها . فهو ينجح عندئذ فى إطالة أمد ذلك النضال أو تقصيره ، وتقريب النصر أو تأخيره . على قدر توفيقه فى استثارة حماسة الطبقة التى يؤيدها . وتبصيرها بمواطن قوتها . ومواطن ضعف خصومها ،

---

(١) يراجع كتابه السابق الذكر ، ص ٢٥ .

وتقوية أملها فى الانتصار . وتثبيط همة أولئك الخصوم . . . إن الدور الذى يلعبه فى ذلك المعترك أشبه بدور القائد أو الزعيم الموفق الذى قلنا إنه يزيد تقدم مجتمعه سرعة فى حالة وقوفه إلى جانب القوة التقدمية النامية . المقدر لها أن تنتصر بحكم قانون التطور . أما فى حالة وقوفه إلى جانب الطبقة الرجعية المضمحلة فهو يعرقل تطور مجتمعه . . . ولكن إلى حين .

وعلى من ينكر مضاء أسلحة الأدب والفن فى المعترك السياسى أن يرجع إلى صفحات التاريخ ليلمس مختلف الشواهد على الدور الخطير الذى لعبته ، لا فى إثارة حروب ، وشل عروش وإقامة عروش فحسب ، ولكن فى الإطاحة بطبقات اجتماعية ذات حول وجبروت كان الانتصار عليها يبدو أمراً ميئوساً منه ، أو ، على الأقل ، بعيد المنال ، وفى تمكين طبقات أخرى ، كانت مغلوبة على أمرها ، من الحلول محلها فى مدة أقصر من المتوقع . ومن استبدال أنظمة جديدة أكثر ملاءمة للتطور بالأنظمة القديمة ، وتمهيد السبيل أمام المجتمع ، بل أمام الإنسانية بأكملها ، للانطلاق فى سرعة أكبر إلى مرحلة حضارية أكثر تقدماً .

وإذا كان الشاعر الثورى يشد بشعره عضد شغبه الراسف فى أغلال الجور ، ويستثير حماسته ، ويحثه على تحطيم أغلاله ، والظفر بحريته المهضومة ، فالكاتب الثورى يعمل من ناحيته أيضاً على إيقاظ وعى شعبه ، بل ووعى سائر الشعوب المهيأة للتأثر بدعوته . وقد يضع لها نظرية ثورية ، مستمدة من الواقع ، تزيح الستر عن الأسس التى يقوم عليها نظام الحكم الهاضم لحقوقها المشروعة ، وتفضح الأساليب الموطدة لأركانه ، فينكشف عندئذ زيف أسس ذلك النظام ، وتمويه أساليبه ، ويفقد القدرة على البقاء محتفظاً بهيبته وسلطانه ، ويسهل التغلب عليه والخلاص منه . . . ونضرب لذلك مثلاً بنظرية « العقد الاجتماعى » التى وضعها « جان جاك روسو » . وأقام بها الحجة على بطلان حكم الفرد الاستبدادى . فكانت تلك النظرية ، وفقاً لرأى المؤرخين ، الساخطين منهم على ذلك الكاتب والراضين عنه ، معولاً من أفتك المعاول التى دكت أسس النظام الإقطاعى . وعجلت باندلاع لهيب الثورة الفرنسية .

وهناك كتاب آخر لنفس الكاتب لعب كذلك ، فى تاريخ فرنسا ، بل فى تاريخ

أوربا والعالم بأسره ، نفس الدور الذى لعبه كتاب « العقد الاجتماعى » ، هو قصة « إيلوويز الجديدة » التى تتحصل فى أن محامياً من الطبقة الوسطى أحب فتاة من طبقة الأشراف ، وبادلته الفتاة حبًّا بحب ، ولكن الفارق الاجتماعىّ بين طبقتيهما حال دون زواجهما . . . وأفسح هذا الموضوع مجالاً أمام الكاتب للإشادة بمميزات بطل قصته ، ثم الإشادة ، تبعاً لذلك بمميزات أفراد طبقته ، والمقابلة بينها وبين ما تتصف به طبقة النبلاء الحاكمة من ضحالة تفكير ، وضيق أفق ، وغطرسة جوفاء ، وتعاظم لا مبرر له ، وادعاء لحق السيادة لا يستند إلى أساس ، وغير ذلك من الصفات التى نالت من هيبتها ، وأسقطت مكانتها بين الناس ، وحفزتهم إلى الثورة عليها . . .

وهناك أيضاً مسرحيات « بومارشيه » الغنائية ومذكراته التى سخرت بدورها من الطبقة الحاكمة ، وأبرزت سخفها وتفاهتها ، وجسدت جورها واستبدادها ، فعرضتها لاستخفاف الناس ، وزيادة ضيقهم بمظالمها ، ونبهت الطبقة الوسطى المستنيرة إلى ما توفر لها من مقدرة وقوة ، و إلى ما حل بخصومها من انحلال وضعف ، وزادتها اقتناعاً بأحقيتها فى السيادة . وبسنوح الفرصة للخلاص من أولئك الخصوم ، وانتزاع زمام الحكم من أيديهم ، ونشطت إلى تحريض الجماهير على الثورة حتى تم لها ما تطلعت إليه .

وفى القرن الماضى كتب بلزاك قصصه الشهيرة التى صوّرت الوهدة السحيقة التى تردّى إليها المجتمع الفرنسى فى ظل النظام الرأسمالىّ . فالمال أصبح المعبود الذى يسجد له الناس ، ويقدّمون مثلهم الأخلاقية قرابين للتوصل إليه ، ويتاجرون حتى بأعراضهم للحصول عليه والتوسل به إلى إشباع أحط غرائزهم . . . وقد أثارت هذه القصص أشد الامتعاض من الفساد الذى تمخضت عنه فوضى ذلك النظام .

وفى روسيا اضطلع تولستوى ودوستويبفسكى بمثل المهمة التى اضطلع بها بلزاك فى فرنسا ؛ فصورا فى قصصهما تكالب الناس على المال ، والتنكر لمبادئهم ، وإهدارهم لكرامتهم وآدميتهم فى سبيل الظفر به ، ثم صورا من الناحية الأخرى ما كان الفقراء يعانونه من عوز وشقاء وذل يندى له جبين الإنسانية خجلاً .

وإذا كانت قصص بلزاك قد مهدت السبيل لانتشار النزعة إلى الاشتراكية فى

فرنسا ، فإن قصص هذين الكاتبين الروسيين كانت من أهم العوامل التى عجلت بتحقيق الاشتراكية فعلاً فى روسيا ، فقد أثارا من السخط على النظام القيصرى الاستبدادى ما لم تخفف من حدته دعوتهما للمظلومين إلى التسامح والغفران على أمل أن يؤدى ذلك إلى ارعواء الظالمين ، وإلى حلول المحبة بينهما محل البغضاء . . . تلك الدعوة التى لم تصادف هوى من نفس أى من الفريقين المتعاديين .

وإذا عدنا إلى الأدب العربى ، ونظرنا إليه على ضوء ما تقدم ، وجدنا أنه كذلك لعب أخطر دور فى حركة تطور مجتمعه ، فقد عمل بعضه على تجميد الأوضاع ، وتأييد سلطان ذوى السلطان ، فأحرز شيئاً من النجاح الموقوت ، وعمل بعضه الآخر على نصرة الجديد ، ومؤازرة التجديد ، فكانت له الغلبة فى النهاية . وأشاد بعض الشعراء بالماضى المندرس ، وحاولوا بعثه من جديد ، وتغنوا بجمال البادية ، وزينوا العيشة فى أرجائها الهادئة الرحبة ، وأحدث ذلك أثراً محدوداً فى بعض النفوس . ولكن أغلب الشعراء وصفوا الحياة الحضارية وصفاً خلاباً ، وطد أركانها ، ودفع الناس إلى تطويرها وتحسينها . وقامت بين الشعراء أيضاً معارك أدبية انتصر فيها بعضهم للظلم ، وبعضهم الآخر للحق ، وكانت الغلبة فى النهاية ، كما هو معهود ، لأنصار الحق . . . وسيأتى شرح ذلك مفصلاً فى فصول تالية .